قصص

القُصّاصون على سجيّتهم

عمّار أحمد الشقيري





تبادل ٢٠١٢

تبادل ٢٠١٢

القصّاصون على سجيتهم

رقم الايداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2011/9/3323

813،9
الشقيري، عمار أحمد
القصاصون على سجيتهم، عمار أحمد الشقيري- عمان: دار فضاءات، 2011
الواصفات:القصص العربية/ العصر الحديث.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-30-267-2



فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2012

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 962)777/911431+)
ص.ب 20586عمان 11118 الأردن
E.mail:Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com
التوزيع في تونس:
فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس
شارع الهادي نويرة. النصر II - تونس 2037
تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) - الجوال 39 42 29 98 (216+)
E.mail: fadhahet @yahoo.com
Website:http://www.darfadaa.com



2011

تصميم الغلاف: نضال جمهور
صورة الغلاف: ملصق لفيلم مدن ترانزيت تصميم لطفي زايد
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

عمار احمد الشقيري

القصّاصون على سجيتهم

قصص



" ما جَدوى المَعرفةِ إنْ بَقيَّ الحالُ على حالِهِ عِندَ تغيّرِ الأَحوال؟ "

إدوارد سعيد

القصاصون الذين اشتركوا عنوةً في صياغة هذه المجموعة:

- ذو اللسان السليط الأعشى
- الجدة اللاّجئة
- شيحا القرويّ
- وآخرون

مِحَنةُ الجُذور

أذكُرُني طِفلاً، ببيتِ جَدّتي، أنامُ عِندها، وأصحو كلَّ يومٍ مع صحوِّ الدّيك، تَمضي لِشأنِها، وأمضي لِشأني في فناءِ بيتها الضيقِ حيثُ الحيّزُ كلُهُ مَشغولٌ بِشجرة الخرّوب التي إستَطاعَت، بِجُهدِ الجَدّةِ ورِفقها، أنْ تَجِدَ لها مكاناً بينَ البيوتِ وما تَبقّى من " البراكيات " * حاملةً في طيّاتِ أغصانِها من غيرِ عناء أعشاشَ الطيرِ من كلِ جنس، مِنهُ المُقمُ كالدّوري، والمُهاجِرُ العابِرُ كالخُطاف المُراوغ، وزوجي حمامٍ بريّ كانَ يَفيقُ في الفجرِ ويسعى ولا يعودُ الاّ مساء.

سريعةٌ وخفيفةٌ كانت تمرُ تلك اللحظات، فلا أنتبه لِما يَمضي مِنها ولا أُعيرُ أهتماماً للآتي، فذاكرةُ الطفولةِ هشةٌ، لا تَصمدُ أمامَ الأيّام وتَعاقبها، فَتُنسى كأنها لم تَكن، لذا نسيتُ وتَشاغلتُ، وصَعدتُ العمرَ مُهرولاً، كذا المُخيّمُ صَعد عُمره فتكاثَفَ بناؤه وتَكاتَفَ وحلَّ الإسمنتُ مَحل الصفيحِ في البيوت، ولم تنجُ شجرة الخرّوب هي الأخرى من أسنان

الجرّافة ذاتَ ظهيرةٍ، وهـي تَـزرَعُ مَحـلَ أغـصانِها أعمـدةً مـن إسـمنت وحديد، ومرت سُنون كثيرة، وجرت مياهٌ كثيرةٌ في وديانِ العُمر قبـلَ أن أصحو على غير عادتي ذات فجرٍ وأسمع هسيساً آتياً من فِناءِ بيتِ الجدّة، يَهمسُ بهذا الحديث، فمضيت للجدّة وكانت مـشغولةً بتقـشيرِ النـسيان عن صُندوقٍ بين يديها، تفتحهُ وتَمـسَحُهُ، ثـم تُدنيـهِ مـن قَلبِهـا فَيُشرقُ محيّاها، قلت: سمعت هسيساً آتياً من هناك، وأشرت بسبابتي لما كان منذ زمنٍ موطن الشجرة، رفعت بَصرها وهمست: يا " مشحر " هذا صوت جذورِ شجرة الخرّوب وهذا قبسٌ من هذا الهمس.

جذر أول

الشعرْ، هديّة شَيطانٍ تائبْ، أو ملاكٍ مُرتدْ لِحضرة الشاعرْ.
الشاعرُ، تاجرُ الكلماتِ المُنتَقاة، يّكيلُها بالوزنِ.
والوزنُ شرطُ وجود الشاعر.

جذر ثانٍ

الحُلمْ، ما إستَطاعَ أن يَجُرَهُ الـشَيطانُ مِـن مُحـيطِ الواقِـعِ، الى شـاطِئ النائِم.

النائم، مُختَبَرٌ هو للمرانِ على الموت.

الموتُ، حين أقُابِله سأسأَلُهُ: ما سِرُ تذكيرِكَ وتأنيث الحياة؟

الحياة، فَترةٌ ما بين بُكاءِ المَولودِ الجَديدِ وإرتدادِ صَوتِهِ كصدى.

الصدى، " وصيةُ الزائرِ للعابر ".

العابِرِ، أنا وأنتُم.

جذر ثالث

الخَريفُ، حالةُ ضَعفِ الطَبيعةِ، ومَسيحٌ يُبشرُ بالشِتاء.

الشتاء، وقتُ جِماع الغيم بالأرض، والمَطـرُ منـيٌّ، سَـقط في الـرَحمِ فاهتزَّ الرّبيع.

الربيـعُ، خَفيـفٌ وشَـفيف، ومَحطـةُ الجَـارِكِ الوحيـدةِ بـين الـشِتاءِ والصيف.

الصيف، صوتُ البعوضةِ ليلاً المُبللِ بالعرق، والمَحمولِ على أجنحةِ الملائِكة وهي تدورُ بالأرضِ دَورَتها .

جذر رابع

النهار، الحقيقةُ واضِحةٌ، ولا تَحتاجُ لِبرهانٍ رياضيٍّ أو حسابيّ ، على تعاقُبِهِ مع اللّيل.

الليلُ، إمتلاءُ الفَراغِ باللّون، وعِمتَ مساءاً يا صاحِبي حتى مَطلعِ الفَجر.

الفجرْ، إستِراحةُ اللّيلِ والنهارِ مِنَ الكرِّ والفرّ " وليالٍ عشرْ، والشَفعِ والوترْ، والليلِ إذا يَسرْ، هل في ذلك قَسمٌ لِذي حَجرْ." **

جذر خامس

اللاجئ، نَشيجُ الناي، على صورَتِهِ الأولى قبلَ المخيّم.

المخيّمُ، زَنجبيلٌ، على جِدارِ حَلقِ الإنسانيّة المُتقرّح، لا بدَّ مِنهُ، أحياناً للتَذكّرِ بأنّ بلاداً خَلفَ النهرِ، قدّ سَقطَ إسمُها سَهواً عِن الخَريطة.

الخريطـةُ، جغرافيـا عـلى ورقٍ، يَرسـمُ حُـدودَها ـ أبـداً ـ الدبّابـةُ والقَذيفة.

القذيفةُ، إنفجارٌ كونيٌ صغير، يُعيدُ تَرتيبَ مَكانِ الإقامةِ عـلى هـوى صاحبها.

صاحِبها الذي أيقَظ ذاتَ ليلةٍ خُرافَته مِن نَومِهـا وجرّهـا بــــ16f وقال: لا أكونُ إن لمّ يّكنِ اللاجئ.

جذر سادس " جذر الجذور "

الهَويّةُ، أن تَرى في الذي يُرى، غيرَ الذي يُرادُ لكَ أن تَراه.

ما تَراهُ، لوّ دققتَ فيه قَليلاً، لرأيتَ فيهِ غيرَ الذي تَراه.

تُراهُ، أكانَ هباءاً جلَّ الذي رأيناه؟

ما رأيناهُ، كأنّهُ، لوحةٌ لفنانٍ مبتـدئ، أرَادَ في نَـزوةِ خيـالٍ أن يّرسـمَ شَكلَ الروحِ.

الرُوح، كلُ ما لا يُعرّفُ مَسكونٌ بها، كالحب.

الحبُ، فُسحةٌ ، لأهدأ قلـيلاً، عـما أكتـبُ الآن، في هـذه الـصفحة، وأعيدُ تَرميمَ هوائيِّ القلب، وأيّممهُ تِجاهَ الله.

---

* محمود درويش
** من سورة الفجر

رِسالَةُ الطيف

بقبرٍ هامشيّ، من غيرِ شاهِد، على طَرفِ مَقبرة المُخيم، نامت الجدّةُ هادئةً ومطمئنةً نومتها الأخيرة، بَعدَما أنهت وبِصبرِ اللاجئةِ رِوايةَ سِيرةِ شَجرةِ الخرّوب لنا نَحنُ أبناءَ أبناءِها وبناتِها، أذكرُ جِلسَتها ونحنُ مُتحلّقونَ حَولَها بِعتبةِ بيتِها الصغيرِ الذي شهدَ مَسيرةَ شجرة الخرّوب ومَصرَعِها، البيتِ المُطلِ على العراءات الواسعةِ في سهولِ حوران* الشبيهةِ كما رَوتْ لنا أو شُبِّه لها بِسهولِ البلدِ القديم في حيفا، كانت تروي تاريخَ اللاجئين المُهمشين مُنذ خروج القوافلِ وحتى إستقرارها المؤقتِ في الخيام خلفَ النهرِ، وما كانَ لأحدٍ منّا أن يُفلتَ مِن سِحرِ سردها وهي " تحكي " في مساءات الصيفِ الأخيرِ لَها على هذهِ الأرض تاريخاً حكاءياً عجيباً، عن سنابلِ قمحٍ طويلة غطت فُرسانَ القرية المُدافعين عن البِلادِ والعباد، وعن أكوازِ ذُرةٍ وَرِثت صُفرةَ الشمسِ وضوءها لِتضيء في اللّيل دَربَ القوافلِ الخارجة من القُرى مرغمةً الى مخيّمات الشتات.

في ليلتها الأخيرةِ بلّلت الجدة وجنَتيها بالدمعِ وهي تَروي آخر حكاياها عن مَصرعِ شجرة الخرّوب التي حَملتها من حيفا غُصناً ندياً، ثمَ زَرَعتهُ في المخيّم، لِيبقى وشماً أمامَ عينيها، تَنظرُ اليهِ كُلما تمادى صَدأُ النِسيانِ على الذاكرة، بَكينا مَعها لَيلتها دون أن نَدري على ماذا نبكي، فالبكاءُ عدوى وقدّ يوّرثُ إن ما أصابَ القلب.

ها أتذكرُ الآن بعد كلِ هذهِ السِنين التي مَضت على رَحيلِها كيفَ حَلمتُ في الليلة التي أعقبت إنتهاءها من الحِكايةِ بالجدّة تأتي على غيرِ خَلقتِها، كان لها رأسَها الآدميّ نَفسه إنّما لجِسدها شَكلُ شَجرة الخرّوب، أذكرُ قلتُ لَها: شجرة الخرّوب تزورني في الحلمِ و" تحكي " لي كلاماً بين النثرِ والشِعر

إبتَسَمتْ قبلَ أن ترحل وقالت: أُكتبه ولا تَعدْ اليه ثانية، فما زالت الحِكايةُ تَحتاجُ لِمن يُكملها، وغابت من يّومِها، ولم تعد تَزورُ، غير أن طَيفَ شجرة الخرّوب ما يزالُ يقّتحم عليّ الحلم، فيذكّرُ الذاكرةَ الآيلةِ للنسيان بالجدّة، إنّما يذكّر بالتلميحِ لا التصريح، وأما ما يُمليهِ طيف شجرة الخرّوب فهذا مِنه:

طيف أول

الأنثى، دفءٌ، إن كَثُرَ كَلامُها صارت عبء.

عبءُ تَنطّحِ كلامِها لِشرحِ جَمالِها.

جَمالُها، عُشبةٌ لِتخفيفِ وطأة الألم.

الألم، " أيُّ ألمٍ أن أراكَ، وأيُّ ألمٍ أن لا أراك ". *

أراكَ الله فنّ صَنعَتِهِ فيها، فأدعُها للكفِ عن كَثرةِ الكـلامِ، لِتتـضحَ فصاحة الجمال.

طيف ثانٍ

المَاضي، ما مَضى وهوى لِجهةِ النِسيان.

النسيانُ، " تَدريبُ الذاكرة على احترامِ الواقعِ " **

الواقعُ ، هو الحاضِرُ الآن، وماضي المُستقبَلِ في المُستقبل.

المستقبلُ، يُطلُ بِرأسه يا صـاحبي مـن جهـة الغيـب، ويَمـدُ لِـسانهُ ساخراً من واقع حاضرنا.

طيف ثالث

الفِكرةُ: ذُبابةٌ تَحطُّ إن زادَ زادُ المَعرفة.

المعرفة: لا تَصلحُ بِغيرِ جُرعةٍ – ولو بسيطة – من إناءِ الفَلسفة.

الفلسفة: قُدرة الشرحِ المَفهوميّ والنظريّ على حَلِّ إشكالٍ وجوديّ وعجزٌ عن حملِ جَسدِ الفراشة في الجانِبِ العمليّ.

طيف رابع

الكِتابة، نزوةٌ نزلت، بِرأسِ القاصِ، ذاتَ مُراهقة، محاولاً بِها ومعها ـ عبثاً ـ إصلاحَ إعوِجاجَ التاريخ.

التاريخُ، كَهلٌ لا يُعيرُ إنتِباهاً لأحد، يَجلسُ على رُخامِ الواقِعِ، ولا يُدونُ غيرَ سيرةِ المُنتَصر.

المُنتَصِرِ بِنهبِ المُنتَصَرِ عليه.

والمنتَصَر عليه، غَفلَ هنيهةً، فسقطَ دهوراً، في جُبِّ الحضارة

الحضارة، نداءُ ماضينا لحاضِرنا المُشتتُ بين هناك وهنا.

هنا، ليس دائماً نقيضُ هناك، فكم مِن كثيرٍ سَكنوا هنا وأخلصوا لهناك

هناك، كان مُبتَغى الكاتبِ مرةً للهروبِ بما كتب.

كتبَ واقِعاً خالِصاً في السردِ، فَفشل، أضاف لـهُ قطـرةً مِـن خيـال،

فتفَشى الخياليُّ وسَرقَ هَدفَ الكتابة الأول.

هدفُ الكتابة الأول، أن أرى ما أريد، وما لا يُرى للذي يجري

أجري، وراءَ سرابَ الحقيقةِ التي غابت في كومة الضباب.

" ضباب... ضباب... نجاة اللّون مِـن التأويـل، ومـساواةُ تُـرجحُ كفـة

الخطأ "

خطأ ما، أصاب شكل القصة بالعطب.

---

*الياباني يوسنياري كوابطا

** محمود درويش

الماركسيان

" عن مُقَاتِلِيّنِ مُتَقاعِدِين قَسَراً "

وجهة الدرب

على بابِ المُخيّم، أمامَ دُكانٍ صَغيرٍ وقديم، يجمَعهُما كُلَ ليلةٍ، يَتذكرُ " الماركسيّ العجوزُ " مَاضياً حَافِلاً ويَأسَفُ لِما آلَ اليهِ، فَيسألُ رَفيقَهُ القَديمِ مِنْ بَابِ سَدِّ الغَصّةِ التي مَرّت بِقلبهِ لِماماً:

ـ كَمْ بَقِي للرِحلَة حتى نَصلْ؟

يَّردُ رَفيقُهُ القَديم، وَقد إعتادَ على السؤالِ الكَبيرِ الذي لَم يَعد كَبيراً مِن فَرطِ تِكراره في آماسيهِما الكَثيرة:

ـ وهل بَدأنا الرِحلةَ في الدربِ الصَحيحِ أصلاً حتى نَقول، متى الوصول؟

يعَرِفُ " الماركسيّ العَجوز " رَأي رَفيقهِ القَديم مُسبَقاً فلا يُعلِقُ، يَصمتان، ويُتابِعان رَشفَ الشاي وشُرودهما الأول، كأن أحدَهُما لَم يَسأل، وكأن الآخرَ لَم يُجب، وكأنَ السؤالَ الكبيرَ الذي لَم يَعدْ كَبيراً لا

يَعنيهما أصلاً، فالزمنُ يَعرف بِمهـارةٍ كيـفَ يُميـتُ القلـبَ ويَـصرِفهُ الى الإنشِغالِ بِتفاصيلَ أقلّ وَطأةً مِن هذهِ الأسئِلةِ الكَبيرة.

آخر الحروب

تمرُّ صَورةٌ بيروت برأسِ " الماركسي العجوز "، فَيتَذكرُ آخرِ الحُروبِ التي خاضَها، هكذا مِن غيرِ سَبب، فَما أكثرَ دُنـوَّ الـذِكرياتِ عِنـدَ بَـابِ النِهايةِ، يَنفطِرُ قَلبُهُ ألماً، ويَستعيدُ شَهيّةَ الكلامِ المَدفونِ فيهِ مُذ جَلسا عِنـدَ مَغيبِ هذا اليّوم بِبابِ الدُكان، فيهمسُ:

ـ في المَرةِ القَادمة... سَأعملُ على أن لا نَخرجَ مِن بابِ الشاطئ.

يُقهقه رفيقه القديم، ويضحكُ مِن نَوباتِ الخَرفِ التي تَفلتُ مِن فَمِ العَجوزِ بين الفينة والأخرى ويقول أسفاً:

ـ وهل بقيّ في العمرِ مَسافةٌ كافيةٌ لِنقولَ " مرة قادمة "؟

يصمتان.

كهلان يائسان، يَجلِسان كُلَ لَيلةٍ، ويَقضُيانِ الوقتَ الفائِض بِذكرياتٍ نَما عَليها غبارٌ كَثيف، يُمنيانِ النَفسَ بِحنينٍ الى زَمن بَعيد، زَمنٍ كادَ يُدفنُ لولا نوباتِ التَذكرِ التي تَلمُّ بِرأسِ العَجـوز، فَيُرسِـلُها صَـادقة وجَافـة، هكذا مِن غيرِ مُقدمات، فَتأتي دائماً كَوقعِ ملحٍ على جُرحٍ نَديّ لهذه النِهاية

التي تَدنو مِنهُما ولا تُصيبُهُما، فَلرُبَما تُدرِكُ النهاية نفسها، أنْ مِن واجِبها أن تُؤخرَ مَوعِدها لِيشهدَ " الماركسيان " المَشهدَ الأخير.

نَشرةُ الأخبار

مرةً أُخرى، على بَابِ الدُكانِ القَديم، حيثُ وَضعَ صَاحِبهُ تِلفازاً على طاوِلةٍ منخفضة، جَلسا يَستَمِعانِ بصمتٍ لنَشرةَ الأخبار، لم يَدع " الماركسيّ العجوز " بِتعليقاتِهِ المُتتالية وشتائِمهِ مجالاً لأيٍّ مِن رَفيقهِ القَديم ولا صاحِبِ الدكان أن يُتابعَ تَفاصيلَ الخَبر وإنعِكاسه الذي أطالَ المُذيعُ في شَرحِه وتَحليلِه، "فَالماركسي العجوز" يَرى أن الحقيقةَ لا تُؤخذُ ـ أبداً ـ مِن أفواهِ المُذيعين والمُحللين أصحابِ رَبطاتِ العُنق والوجوه الأنيقة.

- " الحقيقة تمشي بين الناس " قال لَهما، ثمَ أدارَ وجهَهُ لِجهةٍ ما وأكمل:
- " ومن يُريدُ مَعرفتَها لِينزل الى الشَوارِع ومَحطاتِ الحافلات والأحَياء الفَقيرة ".

لم يتغير شيء

طويلةٌ هي المدة ، التي قَضاها "الماركسي العجوز" ورفيق دربه، وإنشِغَالهُما بِثرثرةٍ مجانيّة وعاديّة عَن تَفاصيلَ عَاديّة أعمى قَلبيهما عن خَيطِ الوقتِ الطَويلِ، فناما بعمق ودون قلق في الحَافِلة، حالمين كلٌّ على حده بحلم خصوصي لايتشاركانِ فيه، مع أن هدفيهما كان واحداً، مخرا شَوارِعَ حلميهما مثلما كانت الحافلة التي تقلهما تمخر اسفلت المدينة البعيدة وتَلتَفُ في مُنعطفاتِها، وعند نهاية درب الحافلة أفاقا وفي كلٍ منهما أثر من حلمهِ، لم يستطع " الماركسيّ العَجوز " إلا أن يَلتفتَ الى رَفيقهِ القَديم الجَالِس بجواره مُتذكراً شيئاً من حلمه ومختلطاً بشيء من الواقع

همس العجوز لِرفيقهِ:

ـ أتغيّر شيء منذ بداية الرحلة؟

هزّ رَفيقهُ القَديم رَأسهُ :

ـ ربما شكل الحلم.

نُدرة الرِفاق

لا إذنَ يَطلُبُه المَوتُ لِلدخول، لا مُبررَ يُقدِمـهُ المُـوتُ لِمارَسـةِ عَملـهِ ونَشاطِهِ في أرواحِنا، يأتي في الهُنيهَةِ المَنسيّة التي يُغفَلُ فيها تَذكُرهُ، فَيدخلُ خَفيفاً ومُسرعاً، يؤدي وظيفتهُ ويَرحلُ مِثلَما دَخـل، هـذا مـا لم يُدرِكـهُ " الرفيق القديم " وهو يتلقى خبرَ موتِ رفيقـهِ " الماركسيّ العجـوز " في عصر هذا اليوم.

الحُزنُ غشيَّ رُوحَهُ في اللّيلةِ الأولى التي يُمضيها وَحده أمامَ الـدكان القديم الذي يجمعهما كل ليلة ، و الفَراغُ ممزوجاً بالوِحشةُ قضّا مَـضجعَ وجُودِهِ وفتحا باب الحنينِ الى الزَّمنِ القديم.

مُتسللاً بِتثاقلٍ، غَادَرَ " الرفيق القديم " بَعدَ بُرهةٍ قصيرة حَاول فيها إستِساغَةَ المَكانِ، فأخفق.

وآخر اللّيل بَعدما ملَّ الحُزنَ صَارَ يَتسلى في وحدَتهِ بِتذكّرِ جَلساتِهما الطويلة والمُملةِ في مُعظَمها، لم يستطع بَعدَ طُولِ تفكـيرٍ أن يخفـي حُزنَـهُ عليها، لكن أمراً ما غريباً كان يَحزُّ قَلبـهُ، إسـتطاع بعـد طـولِ تَفكـيرٍ أن يفسره فهمس لنفسه:

- " إن الأشـياء تَمتلـك قِيمَتهـا مِـن نُـدرَتِها وكـذلك الرِفاق".

اليوم الأول بعد الرحيل

اليومُ لَم يَحصل شيئٌ يَستحقُ التَدوين، لم يأتِ أحدٌ هنا، والكُرسيان اللّذانِ كان يَجلسُ عليهما الرفيقان بَقيا في مَكانِهما في الزاويّة المَنسية من الدكان، والتِلفازُ ظلَّ يَنبحُ وحده مِن غيرِ أن يَجدَ أحداً يُعلقُ على أخبارِهِ التي بدت بلا لونٍ أو رائحة، أقفلَ صاحبُ الدكان بَعدما أطَفأَ الأنوار، فبقيت زَاويةُ الشَارِعِ مُعتمةً وموحشةً وكأنّ المَكان ليسَ بالمكان، الناس بحركتهم من يجعلُ الجَمادات وكلُ ما حولنا مُستأنساً، الجمادات تَستَمدُ رُوحَها مِن حَركةِ الناسِ ووجودِهم.

من مُذكرات زَمنِ الحرب

يَمضي " الرفيق القديم " الى دارِ " الماركسي العجوز " لِيتفقدَ زَوجَتَهُ وأحَوالَها، يَجدها جَالسةً بِباب الدارِ وحيدةً، تَردُ العَزاء بصوتٍ خَفيضٍ على المُعزين ، سَلّمَ عليها فَتذكرت فيهِ زَوجها وبَكت، وما أن رَحلَ المُعزون مع المَساء، حتى أشارت لَهُ إلى السرير القديم الذي كان يَنامُ عليه زَوجها قبلَ رَحيلِهِ، حيثُ وُضِعَ عليه صُندوقٌ خشبيّ صَغير، فَتحهُ

وقلَّبَ مُحتوياتِهِ، والزَوجة العجوز تُتابِعُهُ مِن مَكانِ جِلستِها مُنتظـرةً شـيأً يَّجِدهُ في الصُندوق الذي لم يَّجرؤ على فَتحِهِ.

يَّجِدُ " الرفيق القديم " وسامَ " الصُمودِ " من التنظـيم مُـدونٌ عليـه إسمَ " الماركسيّ العجـوز " والبرنـامج الـسياسيّ بنسختِهِ الأوُلى وقـد اهترأت أطرافُهُ، تَحتَهُ يَجِـدُ قُـصاصاتِ ورقٍ مِـن بَينهـا واحـدةٌ صـغيرة، مكتوبةٌ بِقلمِ رَصاص في زِمنٍ قَديم، يَفتَحُها ويَّقرأُ ما تَبقى واضِحاً مِنهـا وهي بضعة أسطرٍ أخَيرة ....

ما قرأَهُ " الرفيق القديم " في قُصاصَةِ الورق

"................ اليوم أغارت طائراتُ العدوّ على مُعـسكَرِنا، مَتبوعةٌ بوحدات " الكمندوز " الرَاجلة. أطلقنا رَصاصاً مِثلَها لَم نُطلِـق مِنْ قَبلُ، في المـساء أحسـستُ أن كـلُ رَصاصـةٍ أطَلقتُهـا أبعـدتني عـن إنسانيتي مَسافة، لِذا لا يَجب أن نُديرَ الوطن نحن المقاتِلين بعدما نَتحـرّر ونُقيمَ دَولَتنا، الوطن بحاجة الى بشر يُديرونَهُ، أما نَحنُ فقد حولنا العدوّ الى كائنات مُفترسة لا رحمة في قُلوبِها، يَّنتهي دَورُنا هُنا، وعلينـا أن نَـتركُ إدارةَ الوَّطن للأجيالِ القادِمة.....

بيروت حزيران 1982

بعد أن قرأ ما في قُصاصة الورق، أغَلقها وأعادها الى مَكانِها وقال لها:

لا شيء، مُجرد مُذكرات وليس هناك داعٍ لِما هو مكتوب في بقيةِ الورَقة، لا يُوجدُ وطن أصلاً حتى نَختلف على إدارته.

الورقة الثانية التي قرأها " الرفيق القديم " مِمّا قَرأهُ مِنَ أوراق في صندوق" الماركسي العجوز "، ويبدو أنّها جُزءٌ مِن رِسالة بَعثها رَفيقٌ دَخل مع الدَاخلين عقب اتفاق أوسلو

"............ وما إن وَصلتُ الى هُنا حتى هَرعتُ الى قَريتي التي وُلدتُ وتَرعرعتُ فيها، أخذتُ الطَريقَ التي حَفظتها في رأسي كل هذه السنين، وسيراً على الاقدام واصلت المَسير، كنت أحاول في طريقي أن اتنفس كل تفصيل صغير أشاهده في طريقي اليها، ولما وصلت مفترق الطرق الذي يؤدي أحد تفرعاته اليها تهت.

فقد نما عليه عشب كثير بعدما هجر، واصلت الطريق التي كنت أعرف، والمزروعة في مخيلتي منذ الطفولة، أغمضت عيني وركضت

مسرعاً معتمداً القلب كدليل. ووجدتني أخيراً أقف على خرائب وأطلال هي كل ما تبقى من القرية.

أصارحك رفيقي....

لقد احسست أن فؤادي انخلع من مكانه، فلا المكان الذي تركته هو المكان، ولا هو الذي أحتفظت بصورته في مخيلتي... قلت لنفسي أعود غداً علّ القرية تختلف وتتذكرني.

عدت في اليوم التالي، وبقيت أزور الأطلال عشرة أيام وما تبدل شيء ولما يئست بكيت من كل قلبي.

أيها الرفيق....

أدركت بعد مدة أن المشكلة هي ما رسمناه في أذهاننا ومخيلاتنا " أن العودة إلى المكان لا تعني استرجاع زمان ما من زمان، بعينه إلا بالمكان والزمان ذاته وبمن أقاموا فيه شريطة انعدام التغير، وهذا عين المستحيل"* إن المسألة هنا ليست مسألة جغرافيا مع أنها جزء مهم وضروري من قضيتنا لا استغناء عنه، المسألة مسالة قضية ولغة وهوية وبشر، الجغرافيا هي الشرك الذي وقعنا فيه، جل ما أردته هو قريتي نفسها، ومن كان فيها و بالزمان نفسه وهذا مستحيل.

أيها الرفيق.....

بينما سيتحضرني هذا الكلام الآن، أتذكر الشهداء اليافعين والصغار والذين لم يروا من تراب هذه الأرض شيء لكنهم أعطوها كل شيء، أسأل نفسي الآن.......... "

هنا لم يستطع " الرفيق القديم " إتمامَ الرِسالةِ بِفعلِ الرُطوبَةِ التي أكلت آخرها.

• جمال غيطاني

أمنياتٌ صغيرة على أبوابْ العيد

ليلة الـ 27 من رمضان

في أول الزقاق ومعهم كلبهم الأجرب ذو العين المفقوءة، ظلّ أبناء " شيحا " الثلاث مذ أضاءت مئذنة الجامع المعلقة في فضاء المخيم بعد دخول مساء السابع والعشرين من رمضان، يرقبون ما كانوا يعتقدون أنها علامات ليلة القدر، وفي قلب كلٍ منهم كانت أمنية تشع و لا يعرفها غيره ، ولأن لأوسطهم " زعتر " ابن العاشرة أمنية ايضاً مثلهم ولكن نفساً أقصر منهما في الانتظار، فقد تراجعت من باله أهمية متابعة صفاء السماء، وانقطاع نهيق الحمير، وأخذ يفكر بخطته التي أعدها منذ يومين.

ـ ليست ليلة قدر، قال "زعتر" وسحب الكلب وانصرف باتجاه السوق.

فظل أخوه "سلوم" ابن الثانية عشرة يضبط جلسة الإنصات لحركة الرياح وصوت الكلاب والحمير ويبعث " الصغير" من فترة لأخرى إلى

مدخل الحارة ليكشف أكثر صفحة السماء، ويرى إذا ما اصطفت غيـوم جديدة، ولما نهق حمار من بعيد غادر وهو يهمس لنفسه.

- " لن تكون ليلة قدر.

" وترك " الصغير " وحيداً يحدق طويلاً في السماء.

فجر الــ28 من رمضان وكان يوم جمعة

مذّ لمعت نجمة الفجر في الشرق وحيدة، وانتهى المـؤذن مـن دعـوة الصائمين للكف عن الطعام، وأصوات الجلبة فوق سطح الدار تتنـاهى لمسمع " الصغير" المقيم بين اليقظـة والحلـم في فراشـه، عـلا الـصوت، ففتح عينيه وصعد، فوجد " زعتر وسلوم" يمسكان زوج حمام ويخرجان من " الخم" ومن خلفهما الكلب الأجرب، تقدم "زعتر" من "الصغير" ومدّ الحمامتين إليه، وليضمن صمته قال له:

ـ لا تخبر أحداً سنبيعها في سوق الجمعة ونشتري ثلاث مسدسات في العيد.

وبخفةٍ تسللوا خارج الدار و" الصغير" بينهما يحتضن زوج الحمام.

وفي الحافلة المتجهة إلى الـسوق كـان الثلاثـة المحـشورين في كـرسي مزدوج يحدقون من فترة لأخرى بزوج الحمام في حضن الصغير فتـشرق

أمنيات صغيرة، ولما وصلت الحافلة باب السوق هبطوا بأجسادهم الصغيرة، " زعتر وسلوم" يمسكان بأيدي بعضهما والصغير خلفهما يجاهد للحاق بخطواتهما الواسعة. وعند زاوية السوق الشرقية، حيث اصطفت ثلاث طبقات لأقفاص العصافير ضيعهما " الصغير" عندما توقف يتابع عدد العصافير في أحد الأقفاص، قرفص وصار يداعبها من خلف القضبان فخفت كفاه على زوج الحمام بين يديه، فطار، لحقه بعينيه وهو يحلق في الأفق ويبتعد، وقد عصرته غصّة في حلقه، وظل " الصغير " يحدق في السماء لكن لأبعد من الغيوم العابرة هذه المرة.

ليلة العيد وكانت طويلة

جيئةً وذهاباً، وقبيل صلاة العشاء كان " زعتر وسلوم" ومعهما الكلب الأجرب يقطعان الشارع من أمام دكان الحارة والتي علق على بابها حبلان طويلان يحملان مسدسات العيد للأولاد، ولم يكن من الصعوبة على صاحب الدكان العجوز، أو أيما شخص يمّر بأن لا يشك بهما، لذا ترك صاحب الدكان ما بيديه، وأعار انتباهه لهما، فتأخرا عن ناظريه وتواريا منتظرين، في تلك الأثناء كانت البيوت تقيء للشارع الذاهبين الى الجامع، فتواريا أكثر داخل زقاق كي لا يراهما أبوهما " شيحا

" في طريقه للصلاة، ومضت تقطع الوقت تحز قلبيهما الصغيرين وتبللهما بالملل والضجر، حتى أن مللاً غير مبررٍ تسلل لروح الكلب هو الآخر، فأقعى بباب الزقاق، وفرد لسانه محركاً رأسه باتجاه حركة المارة، يميناً شمالاً، وشمالاً يميناً، مطلقاً من فترة لأخرى نوبة نباح لا داعي لها.

انقطعت حركة المصلين، وخفّت القدم في الشارع بعد طول انتظار، فتقدما لجهة الدكان عازمين على تنفيذ الخطة بسرعة، غير أن العجوز هذه المرة كان قد وضع كرسياً أمام دكانه، و أخذ يرد على المارين عرضاً في الشارع

- " وانتم بخير "

ارتفع تكبير المصلين من مكبرات الجامع بعيد انتهاء صلاة العشاء، وعلا صوت التكبير من الجامع، ففاحت رائحة العيد ولفحت قلبيهما الصغيرين فنسيا وضجّا وتقافزا في طريق عودتهما الى البيت، وكأن شياطين الأرض كلها ترقص معهما .

فَحم الفَتى القَرويّ

ذهاباً

في طَريقِهِ عبر بُيوتِ القريّـةِ القَابِعـةِ في أعـلى الجَبـل يَحني " الفتـى القرويّ " رَأسهُ خَجِلاً وهو يَمـرّ مِـن أمـامِ رِجـالِ القريّـة وعَجائِزهـا، حَامِلاً لَوحاتِهِ وقَلمَ الفَحم، مَاضِياً بِصبرٍ وأسى ما يَرميهِ أحدُهم بِهِ كُلما مَرّ مِنْ أمامِ تَجمعٍ لَهم: " فاسق ".

يَسمَعُها ويَعضُ على شَفتيهِ ويُكمِلُ طَريقَـهُ نَـازِلاً الى المَدينـة، يأخـذُ حافلةً الى الجامِعة حيثُ سَيمضي جُـلّ وَقتـهِ مُتـسكِعاً بـينَ أروِقـةِ كُليـةِ الفُنون، بَعدما يَكونُ قَد أنهى مُحاضَراتِهِ عِندَ مُحاضرين نَاعِسين يَتبجحونَ بِقصصِ وأسُسِ الرَّسـمِ الـذي صَـار – كـما يَـراهُ – مُكـبلاً ومَخنوقـاً في أفواهِهم.

تَتَفسخُ رُوحُ " الفتى القرويّ " بُعيدَ بِـدءِ مُحاضَرتِـهِ الـصَباحيّة في " تاريخِ
الفَنِ ومَدارِسهِ " ويَقعُ أسَيرَ جَفنينِ كَليلينِ ونُعاسٍ مِلحاح، فلا يَجدُ غَيرَ خَيالِهِ الرَّطبِ والمُدرّبِ في العـراءات المَفتوحـةِ حَـولَ قريتـهِ مَـلاذاً لإستِخدامِهِ في خَطٍّ لَوحاتٍ صغيرة على ورقٍ بينَ يَديه.

يَسوسُ خَيالَهُ لِتربةٍ أخصب وماءٍ أعذب مِن جُدرانِ القَاعَةِ الخَانِقة، وبَعيداً عن سَردياتِ أستاذِهِ لِحياةِ الفَنانينَ " الكِبار ":

ـ قَطَعَ بُنصُرهُ لمّا أعاقَهُ أثناءَ مُمارَستِهِ النَّحت.... كانَ مَجنوناً، لم يَرسم لوحةً مِنْ لَوحاتشِهِ الّا عَارِياً.

ـ آوووه... يُردِدُ الطُلاب في القَاعَـةِ وهُـم مُنقَـسمونَ بـينَ مُتنـدرٍ وأسِفٍ على حالِ الفَنان.

بِهـذِهِ الـوَتيرةِ يَـسمعُ " الفتـى القـرويّ " مـا يَـدورُ في المُحـاضرةِ الصَباحيّة ولا يَجدُ فيها ما كانَ يَربو اليهِ أيّامَ صِغره.

إياباً

في الوقتِ الذي يهيئ " الفتى القرويّ " نفسه للرحيل عن أسوار الجامعة يكون المساء قد طرق الأبواب وأمسى قرص الشمس مثل برتقالة تسقط بهدوء في فم العدم، يحمل أحلامه وقصاصات الورق الموشوم بالفحم التي رسمها في ساعات الملل في المحاضرات ويعبر المدينة وهو يكاد يختفي بين الجموع الآيبة الى بيوتها، يصعد القرية ويمر بين بيوتها في الوقت عينه الذي يكون فيه مصلو المغرب قد خروجو من المسجد.يراه أصحاب اللحى الطويله وهو يحمل لوحاته ولا يتأخرون عن نعته بصوت عالٍ مشيحيين وجوههم عنه " كافر "، فيمضغ بأسى مزدوج أحكامهم ويدخل البيت وقد خالجه شك في قلبه من اختياره هذا الدرب الوعر.

رحيلُ الحُلم

بَعد سِنينَ عَددا، يَستطيعُ " الفَتى القَرويّ " وبِسهولةٍ أن يَكُشَّ ذِكرى الأمسِ عَن أحلامٍ قَضَت بَينَ فكّي أسوارِ الجامعة والأحكامِ المُعلبَةِ في القريّة، بِبساطةٍ ودُونَما ألمٍ يُذكرُ في القَلبِ يُحرِكُ يَدهُ في الهَواء ويُبعدَ الذكرى كَمن يَكشُ ذُبابةً مِنْ أمامِهِ ويَعودُ مِن رِحلةِ التَذكرِ الى كُرسيّهِ في " شارعِ بَغداد " * لِيكمِلَ رَسم وجوهِ فَتياتٍ مُتخيلات لِمحبينَ يائِسين مُقابِلَ ثَمنِ أقلامِ الفَحمِ وعُلبَةِ السَجائِرِ ومُتطلباتِ حَياةٍ بَسيطةَ لِعاطلٍ عَن العَمل.

هَكذا يَرسُمُ " الفتى القرويّ " مُقيداً بِوصف المُحبينَ لِوجوهِ فَتياتِهم، فلا يَبقى مِنْ فُسحةٍ في اللّوحة لَهُ يَتحركُ فيها غيرَ خَلفيتها، فَيختارُ مَشاهداً طَالما تَامَلها في فَضاءِ القرية .

نَصيحة

مَرةً و " الفتى القرويّ " مُنكبٌ ومَشغولٌ حَدَّ رُموشِ عَينيهِ في تنفيذِ رَسمٍ لِوجهِ فتاةٍ كانَ أحدُ المُحبين العَابِرين قد أملى أوصَافَها عَليه، زَاغت ذَاكِرتَهُ، وسَحبهُ الحَنينُ لِذكرى استاذٍ لهُ رآهُ يَرسمُ مَرةً في مَمرِ مَبنى كُليةَ الفُنون، فَقالَ لَهُ بَعدمَا أعجَبَهُ " حِسهُ بِقلمِ الفحَم ":

- إرسُم ما لا يُرى وإجعَلهُ الرَّئيسيّ في اللّوحة بِسطوّةِ خُطوطِكَ " لَكَ عينَا مُشعوذٍ وأنَامِلُ شَيطان ".

لَمْ يَعرف " الفتى القرويّ " لِماذا غَزَتهُ نَصيحة أستَاذِهِ في هذهِ اللّحظات ولا مَعنَاها، لكِنهُ وبَعدَ وَضعِ الرّتوشِ الأخيرةِ على اللّوحة التي بيدِهِ أكدَ لَهُ " المُحبُ العابر " أن صفات الوجه يَختلفُ عما أملاهُ عَليه، لكنها اللّوحة كَما قَالَ لهُ تُشبه وجهَ فتاةٍ لم تُولد بَعد.

فحم

عِشقٌ ما، صارَ يتسربُ تَبادُلياً بينَ قلمِ الفَحـم و " الفتـى القـرويّ " في رحلتِهما الطَويلة مع بعضِهما التي إبتدأت مُذ خَطّت أنامِلـهُ الخُطـوطَ الأولى على الـورقِ الأبـيض، مُوسـيقى صَـارَ يّستأنِسُها في إحتكـاكِ رأسِ القَلـمِ بالورق، والسِخامُ بين سبَابتهِ وبُنصرِهِ وفرّ لهُ رَائحة طَالَما أمضى وقتاً طَـويلاً في شَمشَمتِها، ولا يَمنع من سَيرِ العِـشقِ بيـنهما وجـودُ فـترات جَـوى مـن طرفِ القلمِ الذي يَتخلى فِيها عن سلاسَـتهِ في الجـري عـلى الـورق، حِينهـا يَتطلبُ الأمرُ مُصالحةً مِن قِبلِ " الفتى القرويّ " بعدَ مُـسايرةٍ طَويلـةً لِقلـم الفَحم الذي تَتشتتُ خُطوطُهُ وتُصيرُ أعرضَ، فكّرَ مرةً:

" الفحمُ ذاكرةُ الـشَجرِ الهالِـكِ بالنّـار وهـو مُحاولَـةٌ مُتـأخرة لِخـطِ إحتجاجٍ على الورقِ الابيضِ رَداً على ما فَعلتهُ النارُ بأصلهِ الشَجرة ".

ومن يومِ بُزوغِ فكرةِ الفحمِ في رأس " الفتى القـرويّ " عَـرف كَـم كانَ السوادُ يَلفُ القلمَ ويُضنيهِ لأصلِهِ، وكم كانَ هذا القَلمُ يُجاهدُ أحيانا لبثِ حنينهِ لمَا كانَ، وحَزنَ " الفتى القرويّ " أكثرَ حِـينَ عَـرفَ كـم مِـن التَشابُهِ يَجمعهُ مع الفَحم في مَسيرِهما ومَصرعِهما.

تَركَ الشارِعَ و" المحبين العابرين " ولمَّ لَوحاتِـهِ المَعروضـة، وصَـعدَ قريَتَهُ حيثُ سَيمضي وقتاً لَيسَ بالقصيرِ مُنعزلاً عَن الرَسـمِ والنُـزولِ الى المَدينة.

* شارع في مدينة اربد المحاطة ومن جهاتها الست بالريف

اليافطة

1

مذ هبط ليل الأربعاء وحتى حواف فجر الخميس وعامل البناء " شيحا "يسمع الفتية يتسلقون مثل القرود أعمدة الكهرباء والهاتف لتعليق " يافطات " المرشحين لانتخابات مجلس النواب، وعندما فجّ الفجر رحلوا، فقام من فراشه وهمس لزوجته: " لو تعملين ابريق شاي".

وانشغل بانتعال حذائه، وتقشير الأسمنت الجاف على حواف سرواله.

حمل عدته ووقف بالباب يجس الجوّ بمنخريه، فلسعته البرودة وانكفأ للداخل، تناول " الحطة " ولفها على رأسه ورد طرفها لفمه ولفت انتباهه أن زوجته رجعت تستغرق في النوم، فحمل عدته وخرج.

وفي الطريق المفضي للسوق ظل رافعاً رأسه يتفحص " اليافطات " الجديدة التي عُلقت في الليل، أستوقفته واحدة مكتوب عليها " مرشحكم أبو ظامن، مرشح إجماع العشيرة ".

كانت اليافطة تتراقص جيئة وذهاباً تحت صفعات الريح، بعدما انحلت زاويتان من الزوايا الأربع التي تمسكها، وأحس فجأة انها ستهوي لا محالة، تركها وسار إلى السوق حيث يتجمع عمال البناء بانتظار سيارة تدعوهم لورشة ما، غير أن برودة الجوّ والصقيع الصباحي أفقدهم الأمل، وبعد ساعة بدأ العمال يتسربون جزء الى بيوتهم، وآخر إلى مقاهي السوق. وظل " شيحا " ينتظر في السوق وهو يتكئ على عصا مجرفته ويدخن، الى أن تسرب اليأس اليه هو الآخر، فغادر باتجاه البيت ماراً من عند اليافطة المتأرجحة والتي فقدت زاوية ثالثة بفعل صفع الريح، وقف تحتها برهةً: " ستسقط لا محالة " همس لنفسه واكمل مسيره باتجاه البيت.

2

منذ الصبح، في ملعب البلدة الذي اشتعل رغم الصقيع بحرارة أقارب ومؤازري مرشح اجماع العشيرة، دبت الحركة بأجساد الشباب

الذين يجهزون المهرجان الانتخابي والغداء المقام على هامشه، وما أن شارف اليوم على الانتصاف حتى بدات حبال الزينة والأعلام وصور المرشح ترتفع في الأفق. وبدأ عريف الحفل هو الآخر مع فني الصوت بتجريب مكبرات الصوت و " الميكرفون " وما هي الا لحظات حتى تدفق الناس إلى الملعب، وتبعهم أولاد المدارس الخارجين للتو بحقائبهم، ودبت الحركة في الملعب، ودبت معها الثرثرات بين الجموع، وكان السؤال الأكثر تردداً بينهم عن موعد الغداء، قبل أم بعد كلمة المرشح، حتى أن هذا السؤال نفسه حكّ في رأس عريف الحفل هو الآخر، فطلب المرشح على التيلفون وسأله، فاجاب:

الغداء بعد الكلمة، إذا امتلأت بطونهم سيرحلون ونخسرهم.

3

في هذه اللحظات كان " شيحا " يجهز نفسه وأولاده للذهاب إلى المهرجان بعدما انتشر الخبر في الحارة كلها، ومن شدة عجّلته لم ينتظر زوجته كي تلبس أحد الأولاد حذائه، جذبهم وخرج مسرعاً، ولحقت به مسرعة وهي تحمل رضيعها وتناديه: يا شيحا " خذني معك ".

لكنه لم يسمعها بسبب عجلته

وصل الملعب وانتحى ناحية قصية وحشر أولاده في كرسي بجانبه وانشغل يثرثر مع عجوز جلس إلى جواره:

- الغداء قبل الكلمة ام بعدها؟ سأل العجوز

بعدها: اجاب العجوز دون أن ينظر إليه.

امتقع وجه " شيحا " وأشعل سيجارة، ثم دور نظره في الملعب فرأى الشباب "تتنطنط" فوق السلالم، أمال برأسه تجاه العجوز، وفتح ذراعيه:

عشيرته ما شاء الله كبيرة.

لم يسمعه العجوز، فقد بدأ صوت عريف الحفل يجلل من مكبرات الصوت مفتتحاً المهرجان ومحيياً المرشح وداعياً إياه لإلقاء الكلمة، رفع المرشح" أبو ظامن" يده في الهواء وهو يصعد المنصة محيياً الجماهير التي بدأت بالتصفيق والصفير.

أفتتح كلمته بالصلاة على النبي، فصلوا، ودعا وأطال، فأطالوا، ثم فتح الورقة وراح يقرأ بلغة ركيكة، طالت كلمته، ولولا برودة الجو والثرثرات الجانبية لنام الحضور من الملل، وأخيراً ومع دخول العصر دخلت " المناسف " وانشغل الناس عن ختام كلمة المرشح برفع الأكمام

ومتابعة الفتية وهم يحملون قـدور اللـبن عـلى رؤسـهم، وخـلال هـذه المعمعة فقد" شيحا " أولاده واختلط الحابل بالنابل وقت الأكل.

فـرغ الجميـع وغـادروا وهـم يتلمظـون ويتمطقـون ويستحـسنون الطعام، وغادر " شيحا " المهرجان متأخراً عنهم بزمن بعدما أمضى أكثر من ساعة في البحث عن الأولاد، وعندما وجدهم أخيراً عـاد بهـم، وفي الطريق انتبه أن " اليافطة " التي كانت تتأرجح في الـصباح قـد اختفـت فهمس: آووه لقد طارت، الريح يا أبو ظامن

4

ما ان دخل وقـت العـشاء حتـى بـدأ " شـيحا " وأولاده يتمطـون ويتثاءبون وقد امتلات بطونهم باللحم واللبن، فغط الجميع باكراً في نوم عميق عدا زوجته التي ظلت جالسة في زاوية الغرفة، تخيط قطعة القماش الأبيض الطويلة بين يديها، وتستمع لايقاع المطر الخفيف الذي بدأ ينهمر مع المساء على أسطح البيوت والأبواب، ومن فترة لأخرى كانت تـترك الخياطة لتكتم ضحكة خفيفة بيـدها كلـما عـلا صـوت ضراط زوجهـا المتقطع، استيقظ زوجها بعـد منتـصف الليـل يشكو مـن الم في امعائـه وطلب منها أن تعمل له كأساً من منقوع " الميرمية ".

وفيما هو يقطع الغرفة جيئة وذهاباً ويلعن الأكل ويتلوى من الألم، شاهد اليافطة المكتوب عليها " مرشحكم أبو ظامن، مرشح إجماع العشيرة ". والتي كانت تتأرجح في الصباح، ثم اختفت في المساء بسبب الرياح، كما ظن، شاهدها على أرضية الغرفة وقد شطرتها زوجته لثلاثة أثلاث واحده على شكل وجه لوسادة، وأخرى كخرقة للم بقايا الطعام، والثالثة، والتي ما زالت كلمة" عشيرة " واضحة عليها، ضحك من براعة زوجته حين استطاعت أن تخيط منها حفاظة للصغير النائم في حضنها.

الأعشى

مهمازٌ من وجلٍ، ظل يوخز خاصرة شعور العجوز الأعشى " شيحا " كثير الثرثرة والمتحدر من سلالة عائلةٍ ضاربةٍ بِمُقامها في الريف، لمّا حسم أمره للمضي الى المدينة الطبية في العاصمة.

كان قمر القرى النائية يجنح لإعلاء ضوءه عندما غفا العجوز وفي رأسه رسم واضحٌ وكامل لرحلته التي تقرر أن ينهيها في نهار اليوم التالي، وقبل الغروب، عدوّ بصره الكليل.

اجتهد وأفاق مع إنبلاج الفجر الذي جرّته الديّكة بصياحها في فناءات بيوت القرية، ثم توضأ وصلى بحركات أطرافه من غير تفّكرٍ ولا خشوع، وتوكل بدعاء خفيف تمتمه اتقاء وعثاء السفر، مستعيناً للرؤية بمساحات الضوء التي يتركها الفجر الكاذب ويأتي بها الصادق، جاساً تضاريس الطريق بكفيه تارةً وبأنفه واسع الفتحتين اللتان غزا الشيب شعيراتهما تارةً

أخرى، كان قد قطع ثلثا الطريق لّما لمحه " فتى الفحم " من باب بيته فصاحَ بعلّو صوت ريفيٍّ إعتاد الهمس صياحاً موقناً بفعالية حدس العجوز في التعرف على صاحب الصوت:

- إلى أين يريد العم شيحا؟

انتظر العجوز كي يقعي الصوت في مؤخرة ذاكرته، فردّ مُبتسماً لّما وجد الصوت صورته في إرشيف ذاكرة الأصوات:

- آها... صار للذي يلعب بتصوير الله وخلقه لسانٌ ويسأل، أجف الخراء في سروالك لتأتي معي حيث الحافلة.

وبأواصر الود التي تجمع كل شخص في القرية مع العجوز " شيحا " دسَّ " فتى الفحم " ذراعهُ من كفه وحتى مرفقه في إبط العجوز، وقاده كدليل للإستئناس أكثر منه كمعرف للطريق، حيث الحافلة التي كانت تتهيأ للإنطلاق في رحلتها الأولى في هذا اليوم للمدينة، وقبل أن يسحب ذراعه ويُجلِسه في المقعد همس بإذنه:

- في المدينة نساءٌ يرسمن على وجوههن أفضل مني، لهن رائحة عطر يقود لدربٍ، الشيطان وحده يعرف الى أين يفضي.

إبتسم العجوز وبان فمه عن لثةٍ خاليه في الفك السفليّ وضرسان وثلاثة أسنان في فكه العلوي، إنطبقا فجأةً وبقسوةٍ على بعضهما لّما إرتجت

الحافلة ببدء إقلاعها، فآلمه إنطباق عظم الضرسين على لحم اللثة الطري فصاح بالسائق:

- يا هوو... لك الأجر مني على الركوب، ومن الله إذا قدت برويـة، فلا تُضع إحدى الحسنيين بفسوةٍ أطلقها من مؤخرتي كتحيةٍ لك،

وأكمل العجوز صراخه مع السائق على طول الطريق الممتدة من القرية وحتى حواف المدينة، فكل ما كان يحتاجه العجوز " شيحا " في شيخوخته هذه ثرثرةٌ ولو بصفة الخصومة ليفلت من شعور الشيخوخة الخرساء، في جَسدٍ ماضٍ الى القبر وأمنيات تحاول سحب ما أستطاعت سحبه من عطب هذا الجسد، ولو غض السائق الطرف عن هذه المناكفة وإلتجأ بالصمت لكان العجوز سيجد علّةً ليقدح منها شرارة الثرثرة من حجارتها الصلدة " أيُّ شيءٍ سيكون صالحاً لتبادل الثرثرة ". صاح العجوز للركاب الذين وجدوا في صياح العجوز وثرثرته منشطاً للتخلص من بقايا النعاس المعشش في مآقيهم، وكما الركاب فإن السائق هو الآخر وجد أخيراً من بين حمم الحنق المتناثرة في وجهه لحظات إعجاب بقدرة العجوز على " الشتم الجيد " فكانت تنفلت منه ضحكةٌ يزيحها بكفه المُتأرجح بين مُبدل السرعة وفمه، بحركة دائبة أشبه بيد فلاحٍ يجز بالمنجل ويمسح العرق عن خديه.

واستطاع السائق أخيراً أن يتنفس بسلاسة عندما صرخ العجوز به:

- لو تتخيرُ مكاناً قريباً من الحافلة الذاهبة للعاصمة، سأعفيك من صراخي، إلا اذا كنت مستمتعاً به، فحين ذاك سأكون مضطراً لإكماله وإسعادك، فضجّ السائق والركاب بضحكٍ صريحٍ هذه المرة، وقاده أحدهم حيثُ باب الحافلة التي توقفت على طرف مجمع السفريات، همس العجوز للرجل قبل أن يودع الحافلة التي ستمضي لمستقرٍ لها في طرف المدينة، بعدما تكون قد نخرتها من أقصى شمالها لأقصى جنوبها:

- أأستطيع الوصول للحافلة الذاهبة للعاصمة من هنا وحدي.

- بسهوله.

قال الراكب الوجل من أن يطاله لسان العجوز، وأضاف:

- إن تهت فأهمس لأحد المارة وسيدللك، لا داعي للصراخ.

- آها.. هذا جيد.

همس العجوز وأردف صائحاً : " وأنت لو تضع شيئاً من العطر سيكون جيداً لإخفاء رائحة إبطيك، قتلتني بها يا رجل".

لا شيء يؤنس كليل البصر أو الأعمى مثل الصوت، ولا شيئ يخيفه أكثر منه، أصوات النازلين في مجمع السفريات وهم يدبون جماعاتٍ جماعات، لامست مخيله العجوز حين وطأت قدماه إسفلت المجمع، فأمسكت خطوه من التيه، ومشى مع منبع الثرثرات وكأنه يرى، ويستأنس

بها من هواء المدينة وناسها الغريبان على قلبه، وإلى نقطةٍ محددة حيث تبدأ الثرثرات بالتشتت في الجهات الأربع، يجفل العجوز الذي يصير وحيداً فيرد بالشتم تمتمةً، حينها يضطر للوقوف وإعمال حدسه في تتبع مصدر الأصوات فينقاد لنقطة نزوله من الحافلة، فهناك تنبع ثرثرةٌ جديدةٌ من أفواه الآتين من الأرياف والنازلين من حافلات تتقيأهم ثم تعاود كرتها لتأتي بغيرهم.

أمضى العجوز أكثر من ساعة على هذه الحال بين ذهاب وإياب في نفس الدرب، يمضي مع الصوت ويقف حين يتشتت، ولمّا حمل على نفسه وخطى خطوتين غير معهودتين في دربه إنفرد فتوقف، وعبّ نفساً عميقاً ليتكىء به على المضي في دربه الجديد، وما كاد يخطو حتى أمسكت بذراعه كفٌ ناعمة وقادته:

- سأذهب للعاصمة يا إبنتي، قال العجوز حين تسرب عطر الأنثى عبر فتحتيّ أنفه الواسعتين، فانتشى وكاد يدوخ لولا أن همست له:

- إنتظر الحافلة هنا.

وإبتعدت تجرّ وراءها رائحة عطرها مثل نيزكٍ يسبق شعاعه فيلحق به وما هو بمدركه.

تحسس العجوز مكان ملامسة كف الأنثى لذراعهِ وهمس:

- رائحة عطر، تحتها تفوح رائحة قرية.

الرائحة جزءٌ من ذاكرة ما، تحمل غالباً تفاصيل غُفل عنها، فتأتي بصور وحكاياتٍ مليئةٍ بحنين لزمانٍ ومكانٍ لا يتجليا الا لمن درب حاسة الشم على الإستقصاء، فإن كان اللجوء لها إضطراراً كبديل عن حاسةٍ فقدت، فإنها قد تقود لإستنتاجٍ لم يتأتى للحاسة الرئيسية المفقودة وهذا ما ارتكز عليه العجوز لحظة وقوفه ينتظر الحافلة الذاهبة للعاصمة، غزته روائح، ما قادته الا لصورٍ وتفاصيل في قريته، فبعد رائحة الأنثى زكمت أنفه رائحة تبنٍ في أولات الفجر مبلولاً بالندى، فاح فجأةً، فاطمئن، فعلا صوته بعدما أنس وإستأنس فنادى:

- أأحدٌ من سلالةٍ كريمة يقود هذا العجوز لباب الحافلة؟

وما كاد ينهي صراخه حتى قاده أحد المسافرين وأجلسه في المقعد الذي خلف السائق مباشرة، فأمن العجوز لرحلته، فصاح بالذي قاده مازحاً:

- يا رجل: أشم رائحة " فساء " نسوةٍ عجائز على هذه المقاعد،

ولّما لم يعر جواباً أسند رأسه لمسند المقعد، ولملم ثناياه، فاستوى ساكناً تحت فتحة المكيف الذي فرد بهوائه البارد إرتخائةً خفيفة على عضلات وجهه وصدغيه، فسحبته سرنمةٌ، فإغفائةٌ، لم

تفسدها جلبة الصاعدين خلفه والذين أضاعوا أكثر من نصف ساعة حتى استقرت مؤخراتهم على المقاعد، ومع بدء الحافلة بالإنطلاق كان العجوز قد غطَّ تماماً بنومه في الكرسيّ مائل الرأس لجهة النافذة التي بدأ زجاجها يزداد سخونةً، فقد ارتفعت الشمس وإستوت بشكلٍ عمودي معلنةً دخول فترة الذروة وشاويةً على مهلٍ كتل الإسفلت ورؤوس المارين عرضاً في الطرقات.

ألسنةً من وهجٍ صارت تتدلى من الشمس وترتد بعد ملامستها الإسفلت فترفع بذلك حرارة نسائم الهواء التي بدأت بالتحرك شيئاً فشيئاً كلما مالت الشمس وجرّت الوقت لجحيم الظهيرة.

وما أن توقفت الحافلة التي تقل العجوز في مجمع العاصمة بعد رحلةٍ طويلة، قطعتها من أقصى الشمال الى مجمع السفريات في العاصمة حتى نزل العجوز ودرج تائهاً، فلمحته أعين سائقي سيارات الأجرة وهي تدور حول الحافلة مثل جرادات صفراء.

- سيارة حج؟ صاح أحدهم وقبل أن يرد العجوز كانت جرادةٌ ورائها تدور حول الحافلة في حركة دائبة ودائرية قد توقفت أمامه، قال السائق للعجوز المحدق في طيف السيارات التي تلف وتدور حوله:

- إركب.

وما تطلب الأمر جهداً كبيراً حتى يدلفَ العجوز بجسده لداخل السيارة ثم يضطجع في الكرسي هامساً للسائق:

- المدينة الطبية، بوابة عيادات العيون.

وبدأ السائق بالدوران والإلتفاف المفاجئ في منعطفاتٍ حادة وقصيرة المسافة، متلفتاً من فترة لأخرى للعجوز الجالس جواره والممسك بمقبض الباب بيده اليمنى وطرف الكرسي باليسرى.

كان العجوز يعرف من رائحة الثوم التي تفوح من فم السائق بأنه يحدق به، فيزيح وجهه لجهة الشباك المفتوح والذي صار يستقبل كتل الهواء الساخن، فتنقبض روح العجوز من جراء كل هذا اللف والدوارن، فزاغت معدته لمّا صارت السيارة تنطلق بسرعة كبيرة ثم ما لبثت أن تباطأت ثم تلتف وفجاةً بمنعطف حاد، ومما زاد حنق العجوز أكثر كثرة الأصوات التي علت من الطريق وهي تحيي السائق وتصفر له:

- أسرع يارجل... دورتان من هنا...

فيرتفع ضحك ما يلبث أن يختفي فيظهر صوت السائق مجدداً:

- ها... من يراهن على دورتين سريعتين من غير إستعمال الفرامل.

فيتعالى الصياح، كل هذا والعجوز يسمع ولا يعرف كم بقي للطريق حتى يصل، ولا سبب كل هذا الصياح، توقفت السيارة فجأةً.

- ثلاثة دنانير.

قال السائق وأخذ يتابع العجوز وهو يخرج محفظته ويتحسس أطراف أوراق العملة الموسومةِ بعلامات تحديد قيمتها للمكفوفين، ناوله إياها وقبل أن ينزل لمح في مخيلته من رائحة الثوم أن السائق ما زال يحدق فيه ويضحك ، ولما قال له السائق: " المستشفى صار على يمينك تماماً " خطر له أن يودعه ببصقة يطلقها في فمه ليخفي بها رائحة الثوم المنبعثة، لكن الفكرة طارت من رأسه لما انفجر في الجو صوت زامور حافلة، فإستعاض عن البصقة بإغلاقه للباب بقوةً.

كانت الظهيرة تدفع قرص الشمس وراء عمارات العاصمة الشاهقة على استحياء فتبقى من حرارتها نتف الضوء في إحتضارها والممزوجة بنسائم هواءٍ ما زالت تحمل لأنف العجوز رائحة إسفلت المدن المطبوخ، إرتبك العجوز فجأةً حين دهمه ما وجل منه قبل البدء برحلته وهو الغروب النازل من الغرب قطرةً قطرة فأسرع عائداً من حيث نزل من السيارة، وأطمأن لّما سمع صوت طرق نعال المارة على الإسفلت، حرك كفيه لأطياف المارين:

- أيعرف أحدكم أين باب المستشفى؟

لكن صوتاً غير طرق النعال لم يصل لأذنيه، فتقدم أكثر من مصدر إرتطام النعل، ونادى:

- أيعرف أحدكم أين صار باب عيادة العيون؟، ومد رأسه للأمام جاعلاً أذنه اليمنى تجاه المارة ليسمع بوضوح، فتناهت لمسمعه بعض القهقهات وطرق نعل، فصرخ والزبد يتطاير من شفتيه:

- يا كتل" الخراء "، أين باب المستشفى.

على ضحك وتطاير من أطياف المارة، فإزدادت حرارة وجهه وضاق صدره، وهبط لمخيلته أن كل ضجيج هذه الجموع ما هو الا نعال تمشي على إسفلت، فاقترب من طيف أحدهم واستطاع أن يمسك به:

- بعرضك أخونا أين أنا؟

- أنت في مجمع الحافلات، وأفلت من قبضة العجوز الذي توقف تفكيره وإنصب بإتجاه واحدٍ، لحظة مكوثه في سيارة الأجرة مع رائحة الثوم التي ظلت تفوح من فم سائقها وهو يدور وينعطف في مسافات قصيرة ويرد على صياح المارة في الطريق، هدأ، وحدق فيما حوله، ثم تدارك، وهمس لنفسه: " المخنث اذاً دار بي في المجمع وطلب ثلاثة دنانير"

ارتفعت درجة حرارته وهو واقف تحت الشمس، وأحس أن حبات العرق التي بدأت تسيل على خديه كأنها حبات عار تضيء لكل هذه

الجموع لتكشف حكايته على الملأ، لفّ حطته وغطى بها شاربه وحتى ذقنه، فبرز أنفه أكثر تطاولاً واستدار مولياً المارة ظهره، قبل أن يجلس على الإسفلت، وقد اتضحت طرقات نعال المارة على الرصيف وصارت تصل إليه، تدق في رأسه مثل حفّار، ومضى وقت طويل قبل أن يسمع أيّما صوت آدميّ:

- إذا سمح الحج، فليبتعد عن الطريق " قال شرطي المرور الشاب المعتمر خوذته قبل أن ينزل عن الدراجة ويسير باتجاه العجوز ويقرّب رأسه منه متفحصاً " هل سمع العجوز ما قلته" أضاف الشرطي ".

- " سمع. سمع العجوز ابن الكلبة ما قاله حضرتكم " رد العجوز.

نهض متثاقلاً، حاملاً بصدره ألم معدن المدينة، ودارجاً تجاه الأفق الذي بدأ يتنفس ويرسل نسائم هواء رطبة بعض الشيء آتيةٍ من جهه الغرب، بعدما لملم قرص الشمس نفسه ونزل فيه خلف العمارات المقابلة للمجمع، وصار باستطاعة العجوز لمس فترة الغروب وإدراكها من خلال حجم الظلمة الداخلة لعينيه والتي بدأت تحيل أطياف المارة لنقاط سوداء لا يبان منها أي شيء.

وسيظل العجوز تائهاً لفترة ليست بقصيرة قبل أن يسمع صوتاً آدمياً ينادي من بعيد بأن آخر حافلةٍ متجهةٍ للشمال على وشك الانطلاق ، حينها

سيدرج ناحية الصوت لاهجاً بالعودة وممتلئاً بـالحنين الـذي تـسرب إليـه ممزوجاً بأسىً خفيف لضياع مشوار المستشفى.

ولم يخطئ سمعه الـدرب، صـعد، ووحـده، سـلّم الحافلـة ولما صـار بمنتصف الممر سحبته يد من كتفـه بلطـف وأجلـسته جوارهـا " الحافلـة ستنطلق " همس الـشاب لـه دون أن يـدري مـا فتحتـه الكلمتـان في روح العجوز من شهية للبوح، أمال العجوز جذعه ناحية الشاب وهو يحدق في الفراغ الذي تشرب في هذه الأثناء ظلمة المساء كاملة ويدأ يقطرها أمامه:

ـ أتعرف؟

همس العجوز، فأدنى الشاب أذنيه وأصغى.

ـ أتعرف أخونا... أغلب الناس هنا إما لصوص أو متفرجون.

فرّت ابتسامة ملحوقة بضحكة خفيفة من الـشاب، فأفلتـت شـياطين الثرثرة في لسان العجوز:

ـ آآه يا أخونا لو تعرف أن الناس هنا بلا أفواه، فقط أصوات نعال على الإسفلت وإن فتح أحد فمه فليقول.. هات، خذ، من فـضلك ابتعـد، لـو سمحت أعطني، "خراء"، كما أقـول لـك، كـل هـذا " خـراء "، أتعـرف أخونا؟ عندنا ما أن يرفع أحـدهم صـوته في الـشارع ضـجراً مـن حـرارة الصيف حتى تبدأ ثرثرة، الشيطان وحده لا يستطيع إيقافها.

وعلى طول الرحلة، لم يتوقف العجوز " شيحا " عن الثرثرة إلا لفترات قصيرة كأن يبلع فيها لعابه أو ليأخذ نفساً عميقاً مبالغ فيه قبل أن يطلق " الآخ " من أعماقه، غير ذلك فقد كان صوته يرتفع كلما تقدم في الحديث أكثر لدرجة أنه وصل أذني السائق الذي كان يجد الوقت بين كل نقلة وأخرى على مبدل السرعة كي يرفع يده محيياً العجوز على تعليقاته ومطلقاً تعليقاً بدوره " لسان.. أنت لسان فقط يا عجوز ".

في البداية روى العجوز للشاب أو ربما لركاب الحافلة كلهم تفاصيل يومه مذ أفاق على عطسة الديك الأول في حوش بيته ، وعن سائق سيارة الأجرة والذي عرف من صوته أنه لا محالة "مخنث " ولا يعرف الشاب ولا ركاب الحافلة كيف قفز العجوز في حديثه إلى عشرات السنين إلى الوراء ليروي تفاصيل جرائم قتل لم يعرف منفذوها عنها كل هذه المعلومات، وسيتحدث وبصوت عالٍ عن زيجاتٍ حصلت، وقد مات أحفادهم منها منذ زمن بعيد، بعيد لدرجة أن أي ذاكرة غير ذاكرة ريفيّ لا تستطيع استحضارها.

مُقام السهل

(والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى)

قرآن كريم

أهرب ببدءِ الضُحى، وألتجىء للسهل ، أترك مَعدنَ مُدنٍ كثيرة، وأيّمِمُ حيثُ النّشء الأول، وكائِناتُ الله اذّ تُسكرُ انّ ما أُمعنَ الدرسَ والمُشاهدةَ فيها، كائناتٌ أفنَت عُمرَها في الأرضِ وعليها، وأُخرُ نِصفُ طائرةٍ نِصفُ دابة، ثالثةٌ تُمضي عُمرَها في الجوِّ مُتخاتِلة، تجلّت بالنَهار نازِلاتُ السَهلِ كَمنابعِ معانٍ مَطروحة ، تخيرتُ مِنها وفضضت، وأكملت الطريق بِبَطنِ البريّة بحثاً عن غيرها.

مشاهدة أولى (هشاشة الفراشة)

أرى ألا ذاكرة للفراشَةِ تعرِفُ فيها ماضِيها، فلِحياةِ الفَراشَة القصيرة سِمةُ البرقِ والومض، ولا جنازةٌ بعدَ مماتها تُنصِفُ جَمالَها ولا مُشيّعون يقودونَ النعشَ جِهةَ الثرى. زارَها الموتُ تواً وهي طائرة، فماتَت أمَامِيَّ ببساطة: سَقطَ الجَسدُ العنوانُ في فُمِ الطيرِ وأكملت روحها الرّفرفةُ نَحوَ السماءِ، ولم أعرف ألِحُسنِ أمْ سوءِ حَظها أن عَدوها طائرٌ مِثلها؟ لونُها من قادَ قَاتِلها اليها فلا صوتَ يَستَدِلُ فيه القاتِلُ على الفراشةِ غيرَ صَوتِ جَمالِها.

أصرخ بطيفِ الفراشةِ:

تعاليّ يا سليلةَ الضوءِ لِنتبادل

أعدُ لكِ مائدةً مِن الضوءِ " المصرَع "

وتعدي لي مائدةَ الهَشاشةِ المُتطلبة للمضي قُدماً في هذا النوعِ مِن السرد

مُشاهدة ثانية (تتبعُ مَسيرِ الجُندب)

على عكسِ الفراشةِ، صَلداً، وصَلفاً، يَتَقافَزُ الجُندبُ أماميّ في تَنقلهِ وترحالِهِ خلال هذه السهول، أبصِرهُ عندَ التعبِ ينزِلُ في ثنايا أكمةٍ ويَحبو بين حَصاتينِ تَحتَها فيكونُ الحَصاةَ الثالثةَ، فَيلتبسُ عليّ من فَرَطِ التَشابُهِ بينه وبينها، أجول بِبَصَري مُنقباً عن أيّها حركة، لكنهُ يُطيل ويُتقنُ السُبات والاختِباء، أقتربُ مِنهُ أكثر دونَ أن أراه فيَجسُ الخطرَ ويَحملُ ذاكرتهُ سريعاً ويمضي قافزاً مثل حَبة قمحٍ على صَفيحٍ ساخن، مُكمِلاً رِحلتَهُ المَجهولَةُ نَحوَ المَجهول

يتعبُ الجندبُ من جديد...

فيُقعي مِثلَ لِصٍ، أركضُ اليه فيظهَرُ مِثلَ فكرةٍ سريعَةٍ خادِشاً الجوّ ومستعيناً بدفقةٍ مِن مَفاصِله والجَناحين هارِباً ، أتابعه وهو يبتعدُ في رِحلَته حيثُ نُقطَةُ التقاءِ السهولِ بالسماء قافزاً بأعلى وأبعدَ ما استَطاعَ غيرَ غافلٍ عن أخذِ فَترةٍ راحةٍ من حين لحينٍ آخر، يُعيدُ فيها لَمْلَمةَ ذِكرياتِهِ والمُضيّ بِها حيثُ الإتجاهُ الوَحيدُ الذي يُتقِنُ طرقَهُ: الأمامُ

أصيح به:

تعال يا سليلَ المُهاجِرينَ والمُتنقلينَ لِنتبادَل:

أعطيكَ مَساحةَ أشجاني لِتُسافِرَ فيها

وتُعطيني مَهارةَ التنقلِ سَريعاً مِن فِكرةٍ لأخرى داخِلَ هذهِ القَصص

مشاهدة ثالثة (دود التأني)

يّترُكني الجُندبُ، وأبحـثُ عـن آخـر، وَقـد صِرتُ عارِفـاً بِمـواطِن وبَواطِنِ اختِبائِهِ واختفائِه بينَ الحصى، أقلّبُ حـصاةً فـلا أجِـدُ الجُنـدبَ أجدُ دُودةً تحفِرُ على مَهلِها مَملكتها

على مَهلِها تَعمَلُ الدُودة في العالَمِ المَنسيّ والهامشيّ والسُفليّ حيـثُ لا يراها أحد، معلنةً أن الـبُطء وريـثُ الحِكمـةِ والواقِعيـة، لا أراهـا تَعبَـأُ بالجمالِ الجاذبِ سبب مَصرَعِ أختِها الفراشة، فتختارُ مُدركةً لونَ مُحيطِهـا ووسَطِها ليَسهُلَ اختباؤها وتُباشِرُ العملَ بَعيداً عن فِخـاخِ اللّـون، بنيـةٌ بلونِ التُرابِ دَخلت نفقاً حافرةً أخاديد أفقية وعمودية،

رُبَما بَعدَ مَسيرةِ حفرٍ طويلةٍ سَتنتَهي بِها الرِحلةُ في جهةِ المقبرةِ حيـثُ سَتخلعُ البنيّ وترتدي لونَها الأبيضَ داخلةً لُحودَ قُبورٍ مـا زالـت رطبـةً، هناك حيثُ سَيكونُ الكـلُ سواسيةً أمـامَ سَـطوَتِها ، حيـث سَـتعملُ في وظيفَتها القَديمةِ كَحليفةٍ وشريكةٍ لمَلكِ المَـوتِ في إكـمالِ مـا انتهـى فيـه دَورُه، سَتقومُ هادئةً بتهيئةِ جثُثِ المَوتى للبعـثِ وتَخليصِ فُتـاتِ أرواحِ الميّتين المُكبلةِ بالأجسادِ العابِرة.

أضع فَمي بِباب جُحرِها الصَغيرِ وأهتفُ:

تعاليّ يا حليفةَ ملكَ الموتِ لنَتبادل

أمنحكِ التبجيل لواقعيتك

وتمنحيني حِكمةَ النهايات لهذهِ القَصَص السريعة.

(والليل إذا يغشى)

قرآن كريم

عُدتُ أعدو مِن رِحلةِ السهلِ، حاملاً ثلاثَ معانٍ عن أصغرِ خَلقهِ. جلَّ إسمهُ وتمَّ صَنَيعهُ، أقفُ بِباب الدارِ وأطِلُ على خُطايّ مثلَما يُطلُ غَريبٌ على خُطى غريب، فأسهو، وأنسى ما حَملتُه، أنوي الرُجوعَ لأُمسكَ خيطاً مِمّا نَسيت، فألحظُ الغَسقَ وما وسق والليلُ وراءَهُ اذّ يغشى، فأحجِمُ رَهبةً، وألجأُ لِتذكرِ ما كُشفَ لي نهاراً، فينأى وأأسو، وأخطو مِن بابِ الدار لطرفِ السهل، وأنادي: " يا سليلو الحِكمة ما كُلُ هذا الجفا؟ " فيرتدُ رَجعُ الصدى خلفي ناقِصاً " ما كل هذا الجفا؟ " فأسلِمُ أن غيرَ الصدى ما قبضتُ، وما من طريق. نسيّاً مَنسياً صارَ ما علمتُ، وهذا حالُ الزمن وسِمتهُ الأبديّة المحو، تَعظُمُ المِحنةُ وتَستَحيلُ الرُجعى، فأضنى على ما فات وأتهمُ الليلَ جزافاً " يا عدوّ التذكر، كنتَ انتظرتَ لأستعيدَ معانيّ " فيرد مناديِ مِن بَطنِ الظُلمة وقد اكتَملت أن (ليس للإنسان إلّا ما سعى) فتهيأ

أتهيأ...

لركعتين خَفيفتين، أيَمم وأفتتَحُ، فأقرأُ في الأولى " الرَحمن " مُطيلاً التِلاوةَ ومأخوذاً برنّةِ النونِ فيها (خَلقَ الإنسان * علّمَهُ البيان *

الـشَمسُ والقَمـرُ بِحـسبان) فأسـجدُ وأركَـعُ وأقـومُ للثانيـةِ وأقـرأُ (والعادياتِ ضَبحا * فالموريات قَدحا * فالمُغيراتِ صُبحا) وأسهو حين أتذكر أن ما من عاديةٍ عدت مُذ وعيتُ إلا على أهلي، فيمسّني كَمدٌ من وراءِه كَبد فيا منْ وحدهُ لَهُ الحَمدُ في البلايا، النجا... النجا

يعيد: تهيأ.

أتهيأُ... وأسعى في الظُلمةِ مِن جِهةِ صَفِ الـسروِ الى بَطـنِ الـسهلِ، وأتدارَكُ: اللّيلُ مكبرٌ للصوتِ ومَنبعُ الصمت، فإن حـدَّثَ، فهمـسٌ أو أقل، لَهُ عاداتٌ تُشبهُ عاداتِ الأمُـمِ والبّـومُ فيـهِ أصـلُ المُـشاهدةِ كُلهـا ومَغزى الحكايّة ومَعناها.

يُعيدُ: تَهيأ.

أتهيأُ على عتبة البيت قبل السعيِ، فأرى صَفَ النَملِ يَخطُ دَربَهُ لِكومةِ قشٍ وأتساءلُ: متى يَنامُ النَملُ؟.

غَريزَةُ النَملِ مَسعاهُ، يُدرِكُ فيها أن لا مُتسعَ مِـنَ الوقـتِ في عُمـرهِ القَصيرِ لِسنة نومٍ قصيرة فيبقى جُلَّ حَياتِه عامِلاً.

يصرُخُ: أن تهيأ واسعَ.

فأسعى، فأرى صَفَ السَرواتِ بِكتِفِ السَهل ليلاً يَختَلِفُ عـما كانَـهُ نهاراً، وما هذا الليل الا مأوى السَرواتِ ينمن فيه مُتكئـاتٍ كُـلُ واحـدةٍ على الأُخرى رَغمَ فَساحةِ ورحابة السهلِ، زارعهنّ مَن اختارَ لَهـنّ هـذهِ

الكثافةُ في الإقامة، أطيلُ تَـاملهنّ نـائماتٍ ومتكئـاتٍ عـلى رَفـرفٍ غـيرَ مُبالياتٍ بِضنكِ النّهارِ ولا بالبومةِ المُقيمةُ في ثنايا أغصانِهن.

يهمسُ وجِلاً: تهيأ.

أتهيأ ... ولا أرى، رغمَ المُحاوَلةِ، لكنَ صَوتَها بـين أغـصانِ الـسروِ دَليلُ وجودِها، البومةُ رقيبٌ في وظيفتهِ مِن على نُقطةِ المُراقَبـةِ العاليـةِ في غُصنِ السروة النائِمة، لا تَسمحُ لأيِّ كائِنٍ لـيليّ أصـغرَ مِنهـا حَجـماً أن يَدبَ على الأرضِ بِسلام إن هيَ رأتهُ، البومة تَرى ولا تُرى

يَهمسُ حذِراً: تهيأ.

أتهيأ... فألمحُ الثُعل يَسعى مِن بَطنِ الظُلمةِ والسهل لِجهة الـسُكنى، يتسللُ بِخفةٍ ورشاقة يُراوغُ السَرواتِ ويُزوغُ عَنه بَصري، فينسِلُ للبيوت حيثُ تَغويه الرائِحة المنبعثةُ من قِنّ الدجاج وبُرجِ الحمام، ويُمارِسُ هِوايّة اللصوصيةِ التي تَركضُ بعروقهِ ويَـسرقُ بمهـارةٍ وجـدارة، ولا أراهُ إلاّ عائِداً أدراجهُ كما دَخل، فلا ينتبهُ اليهِ الرائـي ولا البُـوم المُقـيمُ في أعـالي السرو، سِلاحُ الثُعلِ: الظُلمة والخِفةُ والحِيلة

يُملي: تهيأ.

أتهيأ... فأصغي في مَسعاي لِهدوءِ اللّيـل ودُنـوِ العَواطِـفِ. ويَـسبَحُ التأملُ بِصاحِبهِ، فيظهَرُ صِرصارُ الليلِ لِيحدَ مِن الخَيال ويُـذّكرَ الـساعي المُتأمِل بأرضيّة المسعى، على هوائِهِ ومَزاجِهِ يّـئِنُ الـصِرصارُ بـلا سـبب، فلربما هو هِبةٌ مِن الله ليؤنسَ الساري، صرصـار اللّيـل يـئِنُّ في المَـساحةِ

المَنسيةِ مِن اللّيل، كَشكوى، رُبما أوْ كَنجوى، غيرَ عابئٍ بالبومةِ التي تُطيلُ التأملَ في ثَنايا الأرضِ بَحثاً عن مَصدرِ الثرثرةِ العالية...

يَصيحُ: أن تهيأ.

أتهيأ... فيَمسَسني نَسيمُ آخرِ اللّيل وأولُ الفَجرِ، فأنتبهُ مِن غَفلتي، فأرى أن الديَّكة وحَدها مَن تجرؤ وتُعلن عن دُنوّ نُزلِ الفَجرِ، يفتتح ديكٌ أول البدايةَ، فيردُ آخرٌ وتستَمرُ المُناظرَةُ بين صياحٍ وجواب حتى يَضجرَ البومُ في أعالي السروّ ويرحل، حينها تتنفسُ كائناتُ الفجرِ بعيداً عن عينيّ الرقيب، ويأتي نداءٌ يبشر بأن الله كان منذُ الأزلِ أكبر.

يعودُ النِداءُ يُومئ ثانية: " سلامٌ هي حتى مَطلعِ الفجر " فتقدمْ هذا آخرُ مَسعاي مَعك

فأتقدم... وأرى الجهات الأربع بها حوين.

الشمال: حيثُ ينام فيه الثعل بها سَرق.

الجنوب: تَفيقُ فيهِ السروات مُتأخرات .

الغربُ: حيثُ تلتقطُ فيهِ البُومة مَصدرَ ثَرثرةِ الصِرصار.

الشرق " وهو جهة القلب " : يغمى فيه على الديك من فرط الصياح، فلا يبقى حينها من حكايةِ اللّيلِ الطويلِ غيرَ خطِ النملِ سائِراً ومُسافِراً في خُطوطٍ واضحةٍ لجهةٍ غيرِ واضحة، تَسقُطُ نملةٌ، اثِنتانِ، لا فرقَ عِندَهُ، فَشعبِ النَملِ قاسٍ وعملي، لا يعرفُ الكللَ ولا الملل ووظيفَتُه التِكرارُ والإصرار.

" والنهار إذا تجلّى "

قرآن كريم

كرَّ الفَجرُ، وأُتبِعَ شَفقا، فَجَلى، مُحَقَ بعدما مُحى، وتَنفسَ ورَاءُه الصُبحُ، فَتنفستُ، ومن بعدِهِ (والشمسِ وضُحاها) فأكتَملت ساعتُها دائرةُ الطيرِ مِن كُلِ جِنس، عنادل الصَحوّ، بَلابلُ الشَدوّ ولِمَن بِهِ سَقمُ، قُبراتٌ تخاطفن فوتهُنّ وأجّجنَ مَاءَ الخيالِ، والدوريّ كَعادَتِهِ ينفَجِرُ أسراباً فَيحيي الأمَل بالعمل، أوّ العمل بالأمل، وكبد من بعد كمد بقلبي ينجلي، فأتحين اللحظة وأنادي:

يا سليلي الحِكمةَ أما آنت الرُجعى؟

فيُقبلنَ مُتخاتلاتٍ، وقافزات، فيبتدىء ميلادٌ بعد موت، وبعثٌ بعد ثرى فـ(خُذها ولا تخف * سنَعيدُها سِيرَتها الأولى)، عُدنَ فراشاتٍ وجنادبَ وما عادت حليفة وشريكة ملَكَ الموتِ، انتظرتُ حتى عيلَ صبري، طلبتُها.

فهتف هاتف من جديد: دع عنك، فالدربُ ما زالَ في أوّلِهِ وتهيأ.

فأتهيأ صاغراً.

مُقام الضنى

حولَ المساء، وسهول حوران، ولثلاثة أيام، ما كفّ صوتهُ عن النداء بي " أن درب الناي دربك فأترك هذا النسق واتّبع غيره فو " الليـل ومـا وَسَقْ، والقَمَرِ اذا اتسّقْ، لتركبنّ طبقاً على طبقْ " وأجيبه: من أنت يـا ذا الوقار؟ فيختفي مع الفجر دون افصاح

وفي منتصف ليلة الخامس عشرة من محرّم والقمرُ مكتملاً يكـشف عورة الأرض، هبط من السماء في عمود ضوءٍ إلى الأرضْ ونادى: درب الناي دربك يا ولدْ، فأصعدْ.

ـ قاصرٌ فهمي يا ذا الوقار.

ـ اذاً لتخفضن من صوتك، ولترفعنّ صوت داخلك، وأصغِ لدرب الناي في سلالتك ينجُ فهمك، فترى مـوطن أسـلافك القـديم، قـدْ تـمّ الكشف وأُذن لك فأمضِ في سردك واقتصد.

كشفٌ أول (شروق)

لم أشهد شروق الشمس على اكواز الذرة، التي تنمـوا عـلى مهـلٍ في حقول " حيفا " ولا مدّ البحر وهو يغسل ثوب " المرج " لأصرخ: كان لي ماضٍ هناك أريده،

لكنني تهت ذات ليلةٍ من ليالِ الصيف بجمال ضـوء البـدر مكـتملاً على سهول حوران ، وأصغيت لنشيج الناي في صوت أسراب الـسنونو المهاجرة، فرأيت سهول حيفا في صفحة الـريح تنـادي: كـان يمكـن أن تكون هنا لولا خروج القافلة.

كشف ثاني (غروب)

أسـمع صلـصلة الأجـراس في أعنـاق الخـراف الثلاثـة المرافقـات للقافلة، قافلة أسلافي التي خطّت طريقها تجاه الشرق تابعةً منبع الـريح، ليستقر بها الحال على باب سهول حوران، ومصادفةً كانت رياح " أيار " حينها تهب على حيفا من جهة الغرب، وكان على المهاجر آنذاك أن يتبـع منبع الريح ويقيم على طرف سهولٍ تشبه حقوله كـي يتـذكر كـل لحظـة ويحفظ طريق الناي الى البلاد مع كل هبّة ريح تأتي.

مُقامُ القرى

أوما الشِتاء بِدنوّهِ، فَعَوت رِياحُ المَساءِ، وتَزاحَمت غُيومُ الغَيثِ وتَهيّأت للغوث، فَتُقلَتْ مَجالِسُ أهلِ القُرى - ومِنها مَجالِسُنا - ومُسامَراتُهم الى البُيوتِ بَعدما كانت خَارِجها، فَنحينا نَحنُ الشَبابُ نحيهم، ودَخلنا مَجالِسهُم، فإختلطنا وما انسَجمنا، انّها ظلّ الحَديثُ لَهم والانصاتُ لنا، وكانت هذِهِ منْ عاداتِ القرى وأهلَها ولم يَكُ مِنّا مَنْ إعتادَ خَرقَ العادةِ ومَساسَها، وعلى هذا النّحوِ مَضت أولاتُ الشتاءِ وطالَتْ الحال وضاقت بنا، فلا حَديثُ المُسنيين يُواتي رُعونةَ الرّيعانِ فينا، ولا إنصاتُنا إستَهوى شَبابَنا، فاقتَرح مَنّ مِنّا ومُنُهُ في السِنِّ وإجّترَح: نَرتادُ مَضافة خالٍ ليّ خَاليِة.

وما كادَ يُنهي حتى أسرَعَ الجَمعُ وما أبطأ، فَدخلناها، فإذا هيّ مَهجورة، ومَرتعٌ للقوارِضِ والمَرض، فإجتَهدنا، وأعَدنا كِياسَتها ونَظافَتها، وَدخلناها بَعدَ جُهدٍ فاتحين، فصارت مَلجأنا ومَخبأنا بعد حين،

نَرتادُها عند الغروب، وما نَترُكُها إلا قُبيلَ الفَجرِ بِقليل، فطابَت لنا لَمّتنا وفَتَحنا قِرابَ قَرائِحنا، وتَحدثنا بِحدَيثِ الشَّبابِ ونَزَواتِهِم، وظَلَّ الحالُ على حالِهِ حتى جاءَ يومٌ دَخَلَ فيهِ علينا رجلٌ، جَاوزَ أو كادَ الخَمسين، آخذاً ومِن غَيرِ استِئذان، ناصِيةَ الحديثِ ناحيته، تارِكاً ايّانا في الطرفِ الآخر، كَمستَمِعينَ ومُنصِتين، فتحدثَ بِحديثٍ مُتشابِكٍ ومُتفرعٍ عن ذكرياته التي مَضت قبلَ أنْ يّشهَدَ أينا زَمانَها، ومَضى يُطربُ آذاننا بِحديثٍ طَويلٍ عَن أوصافِ وطَبائِعِ وغرائِب ورغائِب نِسائهِ، فنَسينا لِحلاوة الحَديثِ في المَمنوعِ تِكرارَ قَمعِنا وصَمتِنا، والذي ذُقنا مِن قَبلُ في مَجالِسِهِم طَعمَه وسُمهُ، دَخلَ فينا الرَجلُ أنفاقاً ودهاليزاً عن النساء، لَم نَكُ بَعدُ مِمّن وطَأها، فأتاحَ لَهُ جَهلَنا الغُلوّ والعُلوّ في تَعظيمِ نَزَواتِهِ مَعَهنّ، أطالَ في حَديثِهِ وازَادَ، حتى مَلَّ الجَمعُ أوّ كادْ، رَغمَ عُذوبةِ لِسانِه لِوصفِ نِساءه.

وإذا نَحنُ على هذهِ الحال، هو يَسرُدُ والجَمعُ يّسمعْ، إذّ بِرَجلٍ مِنْ مُجايليهِ يَدخُلْ، سَلّمَ وجَلسْ، فَصمتَ صاحِبُ النِساءِ وانخرَسْ، فأدرَكنا مِحنَتَهُ، فأرَدنا مِحنَتَه، قلنا: أكمِلْ، فأبى وحَبسْ، وتَهيأ للخُروجِ، بَعدَما كادَ يُفتَضَحُ كِذبُهُ، فأبينا إلا أن يَبقى، ألححنا، وألحّ، حتى عَرفَ مُجايِلُهُ مَرادَنا، فأمرنا بِتَركِهِ لِحالِ سَبيله.

وما كادَ يّتوارى حتى انتَشرَ الهَمزُ واللّمزُ بيننـا، ومـا ظّننـا أنَّ هَمزَنّـا ولمَزَنّا بِمنتُه، لَوّلا بِدءُ حَديثِ الرَجُلِ الذي دَخلْ، ومَسكهِ عَنانَ الحَديثِ، قالَ وقدّ عَرَفَ فَحوى الحديثِ الذي فاتَهُ: ذاكَ كذّابٌ ومُدعٍ ـ ويَقـصِدُ صاحِبَ النِساء ـ قُلنا: وَدليلُكَ؟ قال: إنّ شَحّتْ النِساءُ في حَياةِ أحـدِهِم كَثُرنّ في كَلامِهِ وكذا صاحِبُكم.

أعجَبَنا مِنْ فِكرِهِ فِكرَتهُ عن الرِجالِ وأحوالهم، على أنّ ذلك لَم يّشفَع لَهَ بيَننا اقتِحامَهُ مَجلِسَنا والتَطفلَ فيهِ وعَليه، ومـا وَجـدنا حيلـةً لِـصرفِهِ، فَصرَفنا مَقتَهُ وعلّته وسَرعانَ ما اسُتلِبنا بِحَديثهِ الذي بَدأه.

كانَ هذا الرَجلُ، وهو ريفيٌ من أهَل القريّة، يُكنى " شـيحا " وقـد أُشتُهِرَ في المَجالِس بِحُسنِ مُجالَسَتِهِ ومُخاطَبَتِهِ، له لِسانٌ عـذبْ، وحـدَيثٌ خَصبْ، يَسحرُ مُجالِسيهِ ويّترُكُ في النُفوسِ طيباً ومسكاً لمّ يّكُ لِغيرِهِ وقـد عَرَفناهُ وعَرَفَ أغلَبنا.

أمسَكَ " شيحا " مذ غادرَ صاحِبُ النساءِ طَرفَ الحديثِ، وانفَلتت مِنْ فِيهِ حَبائلُ الكلامْ، مُبتدئاً ايّـاهُ بـايرادِ مَـساوىء صَـاحِبه ونقائِـضه، فَروى، وما رَوى ظَمأ الجالسين الذينَ سُرعـانَ مـا استَطابتْ أخيلَـتَهُم وعُقولَهم المَزيدْ، فما أبَطأ، فسّرَ وما اختَصرَ، وفـصّلَ أصـلَ الحكايـا ومـا اقتّصرْ، وروى فيما روى أنّهُ.....

دَخلَ علينا قبل سنيين غابرةٍ، شتاءٌ بـانَ مِـنْ أوّلِـهِ بـاردٌ، ومـا كـانَ كذلكْ، فأغبَرت الأرضُ ونَثرت غُبارَها ، فاستَثارتْ بِهِ الغـيم، وسَـقطَ مَطرهُ كالسيل، جَرَفَ الحقولَ وأحالَها سهولْ، وحَرَفَ بَعضاً مِـن بُيـوتِ القريّة التي مِنْ طين، فتَـشقّقَ سَـقفُ بَعـضِها كـما انـشّقتِ الأرَضُ عـن شقوقٍ صغيرة، انّما غائِرةٌ وطَويلة، وما كادت السَماءُ تُمسِكُ، حتى أمسَكَ الناسُ بأدواتِ فِلاحتَهِم ، وهَرَعوا، نِسائُهم قَبلَ رِجـالِهِم، لِرَتـقِ الطـينِ والشُقوق واعادة ما كانْ على ما كانْ، وما انتبَهوا لاستِفاقةِ الحيّـات مِـن جُحورِها، وزَحفِهـا عَـبرَ الـشُقوق مِـنْ العَـراءِ الى مَجالِـسهم، وعَتبـاتِ بيوتِهم، مُجهِزةً على روحيّ طفلٍ وإمراة كانا نائمين، فضجّ النـاُس عامَهـا وارتَبكوا، ثم رَكِبوا حيّلَهُم وطَارَدوها وما استَطاعوا بَعـدَ طـولِ تعقـبٍ وحيلة غيّر الامساكِ بِكبارِها، فظلّت صِغارُها تَجوبُ الشقوقَ، وتَتَوارى بين الأمتِعةِ مُستَمتعة، فَفَزِعَ الناسُ واستسلموا، وذهبوا أن عـذابٌ مِـنَ الله قدْ نَزلْ، لِكثرةِ الذُنوبِ والزَلـلْ، فَتَركـوا تَعقُبَهـا وصَـاروا يّعـودونَ المساجدَ جماعاتٍ، جماعاتْ، ويّتضرعونَ الى الله لَخليصهِم وردِّ الفاقـات، ولم يَّبقَ في القَريةِ مَنْ لم يَجـزَع غـيرَ الـشَباب اليّـافِعين أمثـالُكم، والـذين وَجدوا في الأمرِ سوءَ تَدبير ، فَتركوا ما ذهبَ اليه أهُلُ القريّة وراحـوا في جماعاتٍ يطاردون صِغارَ الحيّات، في جحُورها وبقايا جُبورِها، مُتخذين المُغامَرة والتسليةِ أغَلبَ الأحيان في عملهم هـذا، فكـانوا إذا مـا بَزُغـتْ

الشمسُ يخَرجون في إثرها، وعِندَ مغيبها تجمعهم الطرقـات، فيعّرضـون ويروون على بعـضٍ نَتـاجَ صـيدهم، وكـان مِـن بيـنهم شـابٌ يُكنـى " المندوب " لُندبةٍ في صَدغِهِ كانت سببَ كُنيته، وكانوا قد استعانوا بِـهِ لما عُرفَ عَنه المَعرفَةُ بِمواطنِ وبَواطن اختباءِ الحيّات، فقد كـان ابـنَ البريّـة وساكِنها، وما رويَّ عَنهُ أنّهُ ابنُ امراةٍ من القرى المُجاوِرة، حَبلَتْ فيه بعد وفاة أبيه، فاتُهمت بالزِنى، وما كانت كذلك، ومـا اسـتطاعت مُواجَهـة أهلِها بِحُجّتِها، فاختارت هِجرَتها، وانتَهى مَقامُها في القريّة منذُ زَمنٍ، لا تُخالِطُ بَشراً ولا تَعودُ أوّ تُعادْ، مُتفرغةً لِتَربية الصبيّ، فَماتت بعدَ حين هَماً وغَماً قبلَ بُلوغِهِ، فَعاشَ بعيداً عن البيتِ في البريّة حيـاةً شـقيّة، فمنحتـه صُلبَ العودِ والشدة، فعاشَ عيشةَ الحيوان يأكلُ مِـن مأكَلِـه ويتـصرفُ حيناً بتصرُفِهِ، فكانَ أقربَ إليه مِن الانسانْ، وما كـانَ يُخـالطُ النـاسَ الا لِماماً، يأتي بالزيارَةِ كالغارة، ما إنّ يَدخلْ حتى يُغادِر، فقد كان مَنبوذاً عندَ أهل القريّة، أشيعَ عنهُ أنّهُ صاحبُ سلوكٍ شاذْ وتصرفٍ غيرِ سويّ، فمـما قيلَ عنهُ أنّهُ يواقعُ الحيوانَ ويّتخذُ من حمارةٍ لـهُ خليلـة، يُقبلِهـا وتُقبلـه، وينامُ معها كما ينامُ المَرءُ بِزوجَتـه، وحـين يُريـدُ الانتـشاء يّـشمُ صِـمغَ الشجرْ، فيسري بِعقلِهِ مَسرى السكرْ، فيدوخ ويُعربِد مِثلَ مُتعاطِ الخَمرْ، ومع هذا كلهِ فَإن ثُلةً مِن الشبابِ البَاحثينَ عن الحيّات ومُتتَبِعيها لم تَجدْ بُداً في غِمرِ تَحديها مع ثُلة أخرى مِن الإسـتعانةِ بِخبرَتـه وحيلَتِـه، فَـصَارَ

يُرافِقهُم ويَدُلهم على مَوطِنِ الحيّات وطُرقِ استِدراجِها من الشقوق، لافاً كَفَهُ وحتى أعلى مِرفَقِهِ بِجراب قماشيّ أبيض، لاتقاءَ لَسَعاتِها اذّا ما اضطر أنْ يُدخِلَ يَدهُ في جُحورِها، فلازَمهُ الجِرابُ وما خَلعه، فَعَرَفهُ الشَباب بِصاحب الجِراب بجوارِ كُنْيَتِهِ الأولى، وتَوّطَدتْ عَلاقَةُ بَعضِهِم به، فَزاروه حيث اتّخذَ مِن مَقبرةِ القريّة مَقاماً لَه، وبادَلَهم الزِيارَة حيناً في مَنازِلِهم، لكنْ على إستِحياء، فَعَرَف كِبارُ القريّة بِأمرِ العَلاقة فنَبَذوها، وعَمِلوا على قَطعِها، وكان من أشَدِ الداعين لذلك إمام مسجدِ القريّة، وهو من أهلِ المَدينة جاءَ يسعى بأمرِ السُلطات التي استَجابتْ لِطلب أهل القَريّة في ضرورةِ وجودِ امامٍ يعرفُ في الدينِ حَقَ معرفة، ويَدُل الدَهماءَ على مَوطِنِ الزَللِ والخطايا، سَبَبِ فاقةِ الحيّات، فكان يُصلي بالناسِ الخمسْ، ويَتفرغُ بين الصلاةِ والصلاةِ لِإعطاءِ الدرسْ، فَيدخُلُ المَسجِدَ فَجراً، ولا يُغادِرهُ الّا عِشاءً حيث غُرفَتهُ في طَرَفِ القريّة، فكانَ ذَهابُهُ وإيابُهُ في الطُرُقاتِ لا يَتمُ الّا ليلاً، فلم يَرَ لذلك الشَبابَ ولا هُم رآوه فَزادَ ذلك من الإشاعات عَنهم، وأن بَعضَهُم نَحا نَحيّ تَصرفاتِ " المندوب " في شُذوذ السُلوك، وما استطاعَ الشبابُ رَدَ التَلفيق، فَصدّقَ الإمامُ مَنّ حَولَهُ، ومقت العَلاقَة وحذّرَ مِن مُصاحَبَتِهِ، حتى أنَهُ بَعدَ صَلاةِ عِشاء، شَحَذَ الهِمم، وحَذرَ مِن عَاقِبة هذه المُصاحبة، التي سَتجلبُ غضبَ الله إن لم يَرتَدِع الشباب، فاقتنعَ الكِبارُ وما كان بيدهم

منْ حيلةٍ لقطعِ العَلاقة، فأيقنوا بِدنوِّ غَضَبِ الرّب الذي لا رادَ لَـه، غـيرَ الدعاء ، فأكثروا مِنهُ وابتهلوا، وطالَ الانِتظار، وما وَقَع غَضبٌ، فقالوا: انّما يُمهِلُ ولا يُهمِلْ.

وذات ليلٍ وأهلُ القريّةِ يتهيـأونَ لِلنـومِ بعَـد العِـشاء، كـان الإمـامُ راجعاً لِغرفتِهِ ماراً من عندِ المَقبرة، فَسلّمَ كَعادَتِهِ بتحيـةِ الـسلف: سـلامٌ عليكم قومٌ مؤمنون، أنتم السابِقون ونَحن اللّاحقـون، فارِتفعـت كـفٌ من خلفِ شاهدةِ قبرِ عالية ورَدّت السلام فَجَزِعَ الامام وهَربْ، وذهبِ بخياله أن استيقاظ الموتى ومُخاطَبَتُهم الأحياء ما هي الّا نَذيرٌ بِبدء وقـوعِ الغَضب، فأنتَظر الفَجرَ وروى للمُصلين، فما كـانَ مِـنهم الا أن صَـدّقَوا وانَتحبوا، فَخَطَبَ بِهم وأخطرهم أنّهُ داعٍ فـأمّنوا، فَـدعا وأطـال، حتـى انسابتْ العَبَرات، وحرّض على الشباب، بعدما أخذَ علَـيهم انقطـاعهم عن المَساجِدِ وارتيادها، فتَركَ الجَمـعَ وفي نُفوسِـهم مـا فيهـا مـن جـزعٍ وتحرّيض وغادَر لِغرفته من طريقِ المَقـبرة فـسلّم بِتحيـة الـسلف ثانيـة: سلامٌ عليكـم قومٌ مؤمنون أنتُم السابقون ونَحـن اللاحقـون، فأرتَفعـت الكفَ كما المرةِ الأولى ورَدت السلام، فَهربَ الإمام، وأيقن بِبـدءِ نُـزولِ الغضب، وما هي الا أيّام فَقط....

فات العِشاء، ولم تَنتهِ حِكايّة الـشِتاء، فـما زال " شـيحا " يَـدورُ بهـا متنقلاً بين " المندوب " والشباب من جهة، وبين كبار القريّة والإمامِ من

جهةٍ أخرى، مُستَعيناً لِشرحِ الحكايـةِ بـالتلويح بيديـه اللتـين بَـدتا مِثـلَ مِجدافين يَمخرانِ مُحيطَ المَاضي بِنا، ولأنّ لَهُ القُدرة على البَقاءِ في الوسـط، غيرَ مُتلاطفٍ أو مُتعاطف مع أيٍّ من الطرفين، فقد اكتَسبَ صِفة الحكّاء المَاهِر، فما أحسسَنا بالعِظة في كَلامِه، إنّما اشِاراتٍ كان يَبُثُها، ولنا الأخـذ أو التركُ، فاستَطبنا حَديثَهُ وإخبارهُ، عن الزمن الغابر، ولم يَكن لِينسى في وسِطِ حَديثِهِ وتَأزمِهِ بِأخذِ فَترةٍ رَاحةٍ يَسترقُ فيها النظر لِوجوهِنا لِيجس تأثيرَ حَديثِهِ ووقوعِهِ مَوقِعَ استحسانٍ منّـا وكـانَ يَـستَرِسلُ سَريعـاً بعـد التوقف قليلاً ويكمل....

ومضت بعدَ حادِثة السلامِ بين أهلِ القُبور والإمام أيام، زادت فيها حركةُ الحيّات وزيارتها لبيوتِ القريّة، فَصارت تـدخلُ في الفِـراشِ بـين الزوجِ وزوجه وتتَسَلل الى اوانِي الطَعام وتُقيمُ لأيّام، فإذا فَتحت النُسوةُ القُدورَ نَطّت هاربة، وناشرةً الذُعرَ بين الساكنين، وانتشرت جلياً في تِلكَ الفترةِ نِزاعاتُ الـشّباب مـع أهلـيهم ومَـردُ ذلـك، لتحـريضِ الإمـام. وتعنُتِ الشّبابِ مِن جِهتِهم، فاضطربت النُفوسُ وتعكّرت، وأيقنَ الكُلُ بأنّ بِدايةَ الخَرابِ قدّ أزفت، على أنّ سَببهُ في رأي الـشباب اختلـف عـما كان عندَ الكِبار، فاتـسعت دَائـرةُ الـشِقاقِ والخـلاف، وبَـدى الفَريقـانِ مُتمترِسانِ كلٌ في ناحِيتِهِ ومؤمنٌ بِقربِ دُنوّ الخَراب عـلى أن ذلـك لـيس الذي حصل...

فحين ظنَّ الجمعان، وأسلموا بدنوّ الخراب مَع إختلافِهم على سَببهِ، التَهى كلٌ منهم وإنشَغلَ بالحديثِ والتَلفيقِ على الآخر، غيرَ غافلين عن إضافةِ شيء من كذبٍ ومُبالغة فيما ليس فيهما، فإدّعى الشّبابُ على الكِبارِ أنّهم إتبَعوا الإمامَ الخَرِف الذي انحَرفَ بِعقولِهم وأشبَعها خُرافاتٍ وحِيّل، وأنهُ ـ الإمام ـ يَدّعي مُخاطَبَةَ المَوتى ومُصادَقتهم وتقديمَ القرابين لَهم، لِيشفعوا لَه ولَهُم، وإدعى الكِبار على الشّبابِ أنّهم بَلغوا في فُجورِهم وفِسقِهم حدّ إتّباعِ " المَندوب " والتصرفِ بِتصرفهِ وعلى هذهِ الحَال صَارَ الحال، فَغَفِلَ الجَمعانِ عَن فَاقةِ الحيّات بالغيبةِ والنَميمةِ وكادَ الجمعان ينسَيان سَببَ شِقاقِهما لو لا بِدءُ النِسوة بِمشاهدة بعضِ صِغارِ الحيّات ميتةً في أروقةِ بُيوتِهنّ، فقد بَدى الأمرُ عابراً ذي بِدء، غيرَ مُلفتٍ، فإنتشرتَ على عتبات البيوت والمَمَرات، فَصارت تُرى جُثثها مُتفسخةً ومُتحللة، وفَوقها كومُ نملٍ يُحاوِلُ جَرها لِجحورِهِ، وإنتَشرَ الخَبرُ في أرجاءِ القريّة أنّ الله إستجابَ لدُعاءِ المُستنجدين، في حين ذَهَبَ الشّبابُ الى أن جُهودَهم مع " المندوب " في المُلاحقةِ والمُطاردة قد أثمرت، وما كان السببُ في أختفاءِ الحيّات ومَوتِها لا هذا ولا ذاك....

تَوقفَ " شيحا " عن سردِ حِكايتهِ ونَظر الى وجوهِ اليهِ ناظرة ومُستنظرةً حكايةِ موتِ الحيّات في الطُرقات، فأبطأ في حَديثهِ مِن بابِ التَشويقِ وسلبِ الألباب، فاستعجلناهُ، فأبى مُتذرعاً بأخذِ فترةِ رَاحة،

فألححنا عليه، فأدَركَ دَرجة إستِلابِنا وتسليمنا لِسردهِ وحكايتِهِ، فاغتنمَ الفُرصةَ التي انتظرها ونَحا بِحديثِهِ نحي النصيحةِ والعِظة، مُكمِلاً آخرَ حِكايته....

لمّا أمطرت لأولِ مرةً بَعدَ إنحِباسها في الصيفِ، تَبللّت جُحورُ الحيّات وغَرقَت، فخرجت كِبارُها لظاهرِ الأرضِ هاربةً وتاركةً بُيوضَها خَلفها مع المَاء، فلمّا تَمكنَ أهلُ القريةِ مِنها ظنوا الفاقةَ انتهت، حتى إذا خَرجت صِغارُها مِن البُيوض تَبعت مصدرَ رَائحةَ أمهاتها، فَوجدت نَفسها مُقيمةً في إنثناءاتِ الفِراشِ الدَافِىء وأواني الطعام، فكانت تَزحفُ على غيرِ هُدى، نَاشرةً ما نَشرت مِن الفزعِ والهَلعِ، ولّما انتصفَ الشِتاءُ وإشتدَ بِبردِهِ لَم تقوَ الصِغارُ على إحتمالِ قَسوتِهِ، فبدأت تَموتُ حَيثُ استقرت، على أن ذلك لَم يَدُر في خُلدِ أيّ مِن الطرفين شِيبها أكانَ أم شَبابها، فكلٌ انشغلَ في إدعاءِ النَصرِ لِفريقهِ، وتَعظيمِ شأنِ بَأسهِ وطَريقته، أمّا عَن حَادثة السلام بين أهلِ القُبور والإمام، فهي صَحيحةٌ إنما لَيس رَادَ السلامِ المَوتى بل صاحبُ الجِراب المُكنى " المندوب " الذي استوطن القُبور، فلم يِجد بُداً مِن رَفعِ يّده وهو مستلقٍ عِندَ شِاهدةِ القبرِ ورَدِ التَحيةِ على الإمام، ولأن الوَقتَ كانَ ليلاً لم يُميز الإمام صاحبَ السلام.

والآن وقد انتهت الحِكايةُ أُنبئكم سَبَبَ إقتِحامي علـيكم مجلسكُم، وإخذي للحديث من غيرِ إستئذان.

فـما أردتُ مِـن الحكايـة الإسـتئناس والإخبـار بِقـدرِ مـا أردتُ أن تُدركوا مُرادي بِما رويت، فقد أتيتُ والله قاصِـداً ومُتعمـداً غـيرَ عـابرٍ، وقصدي رجوّكمُ الرُجوعَ لِمجالسنا، فإنها قد أقفرت بعد رحيلكم فـأنتم صِغار القومِ اليوم كبـارُهم في الغـد، وكِبـاركُم صِـغارُ القـوم في أمـس وأصـحابُ المَنـدوبِ وأعـداءُ كِبـارهم وإمـامهم، ألا فلتعلمـوا، ان لا إنفكاكَ في هذه الدنيا من مُصاحبة الصغيرِ للكبير يّمدُهُ بالحِكمةِ والعِظـة ورَجاح الرأي، ولا إنفكاكَ مِن مُصاحبةِ الكبير للصغير يواسيه ويـذكّرهُ بماضيه، الذي مَضى وهوى لغير رجعة.

قُلنا: قد أدركنا والله يا " شيحا " مَغزى حكايتك قبل نهايتهـا وهـذا كلامٌ ما خلا من بدايتهِ مِن حكمةٍ وتجربة، إنّما لا طَاقـةَ لنـا بِمجالِسكُم تَسردونَ فيها ماضيكم وتَستَحسنونه، وتستسوئونَ حَاضرنا وتبغضونُه، مسترسلين بِسرد ذكرياتِكُم التي لم يّشهد أي منا مِنهـا ، قـالَ " شـيحا " وقد ابتسمَ وبانت إبتسامَتُهُ عن حنّوٍ وعطف: كلامُكم صـحيح، بَيـدَ أن مُواساة كِباركم واجبٌ عليكم، فإن أحدهم قـد ولى زَمانُـه ومـن ذَهَـبَ ذَهَبُ زَمانِهِ تَعزّى بإيرادِ ذِكرياتِهِ وهذهِ عاداتُ البَشرِ وكذا أهليكم .

الفهـــــرس

ت	العنـــــــوان	رقم الصفحة
1.	محنة الجذور	9
2.	رسالة الطيف	17
3.	الماركسيان (عن مقاتلين متقاعدين قسراً)	25
4.	أمنيات صغيرة على أبواب العيد	37
5.	فحم الفتى القروي	43
6.	اليافطة	53
7.	الأعشى	61
8.	فصل المقامات	77



جذر الجذور

اللّاجئُ، نَشيجُ النايِّ، على صورَتِهِ الأولى قبلَ المخيّم .المخيّمُ، زَنجبيلٌ، على جِدارِ حلقِ الإنسانيّة المُتقرّح، لا بدّ مِنهُ، أحياناً للتّذكّرِ بأنّ بلاداً خَلفَ النهرِ، قد سَقطَ إسمُها سَهواً عِن الخَريطة

الخريطةُ، جغرافيا على ورقٍ، ترسمُ حُدودَها - أبداً - الدبّابةُ والقَذيفة .القذيفةُ، انفجارٌ كونيٌ صغير، يُعيدُ تَرتيبَ مَكانِ الإقامةِ على هوى صاحبها !

صاحِبها الذي أيقَظ ذاتَ ليلةٍ خُرافَته مِن نَومِها وجرّها بـ ال (ف ١٦) وقا...

إن لم يكنِ اللاجئ

عمار الشقيري/ من قصة م...



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com



9789957302672

لوحة الغلاف : محمد سامي - العراق